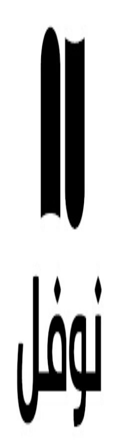

رواية
غضب
وكنداكات
أمير تاج السر
نوفل

رواية

غضب
وكنداكات

أمير تاج السر


نوفل

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: © **Ashraf Shazly / AFP**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-692-7
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-693-4

ربّما أكون أجبت عن سؤال.

1

فجأة ومن دون أيّ تفهّم لحالته الخاصّة جدًّا كرجل مسالمٍ طيّب، من حي بركة الطيّب، وجد خضر جابر – أو «خج» كما اعتاد أن يسمّي نفسه معتمدًا على اختصار اسمه، وجد نفسه أمام معضلة كبيرة، وعميقة، تفوق كثيرًا قدرته على حلّ المعضلات.

منذ أن جُنِّد قسرًا في جهاز الأمن الوطني، قبل ستّة أشهر فقط، لم يكلّف إلّا أشياءَ صغيرة جدًّا، وعفوية، لم ينجز منها أيّ شيء تقريبًا. أشياء لا تحتاج إلى وجه مكروه، أو سمعة سيّئة جدًّا، أو حركة دائبة هنا وهناك، أو أفكار مزعجة، تتحدّث عن احتمالات نجاح المَهمّة أو فشلها. أشياء صغيرة، مثل أن ينهر صبيًّا يتبوّل على حائط نظيف، أو متّسخ لا فرق، أو أن يطفئ الجمر في موقد متهالك لبائعة شاي فقيرة باستخدام التراب المتوفّر في الشوارع، أو أن يتابع تظاهرة هادرة ضدّ النظام، من بعيد فقط من دون أيّ تدخّل ضارّ، أو أن يتنفّس بتكبّر أمام باب موصد في مكان حيوي، بواسطة خفير عنيد، وقد يخرج بطاقته الأمنية من جيبه، يمرّرها أمام عيني الخفير، إذا استدعى الأمر.

مرّة واحدة فقط أمر، مع ثلاثة آخرين، بإشعال فتنة نائمة بين قبيلتين تسكنان بهدوء في أحد الأحياء الطرفية من المدينة الكبيرة، واشتعلت. لكنّه لم يكن مشعلها في الحقيقة، وإنّما مرافق سطحي، يرى ويسمع، ويتلقّت بغباء. وربّما كان المقصود أن يتعلّم كيف تتحوّل الأشياء الصغيرة جدًّا، والتي لا تذكر غالبًا، إلى شرار لفتن كبرى، يموت فيها الناس، وتحرق البيوت.

لا يدري خج شيئًا عن التحوّلات، ولا يعرف إن كانت مجرّد مصادفة أم قدرًا، أن يتحوّل حارس بوّابة عاديًّا، بلا طموح، في صالة الوصول بالمطار، إلى رجل أمن لا يشبه رجال الأمن إلّا في مقاطع بسيطة، لا ترتقي لتكون ملامح حياة.

ولطالما كان مشتعلًا بحماسة متوسّطة القيمة وهو يراقب الداخلين إلى الصالة محمّلين بأشواق أو أطماع، ليستقبلوا العائدين من السفر، والخارجين منها بحقائب تبدو أحيانًا بدينة، وتئنّ من التعب، وأحيانًا خفيفة جدًّا، لدرجة أن يتوقّع انفلاتها من الأيدي، وتحليقها في المكان.

خلال تسعة أعوام أمضاها في ذلك المكان السطحي، الذي عيّن فيه بعد أن ترك الدراسة مبكرًا، وأقسم ألّا يعود إليها مرّة أخرى، صادف أنماطًا مختلفة من الناس الغلاظ والركيكين وحملة المشاعر الدقّاقة، والهاربين من الموت والعائدين إليه بأقدامهم، كما تعرض لمحاولات كثيرة للنقل من مكانه، والفصل عن العمل، لأسباب لا يعرفها، واتُّهِم مرّة بالتواطؤ مع فرقة فنّية من جنوب أفريقيا دخلت البلاد وفي داخل تجاويف آلاتها الموسيقية أقراص جنسية، وكان ذلك اتهامًا بائسًا أوّلًا لأنّ حراسته للبوّابة لا تشمل تفتيش القادمين الذين تفتشهم الجمارك، وإنّما مراقبة المكان عمومًا، تحسّبًا لأيّ خلل أمني، والسماح أو عدم السماح للداخلين من البوّابة لأيّ غرض، وثانيًا لأنّ لا فرقة موسيقية قدمت من أيّ مكان في الدنيا قد دخلت البلاد في السنوات الثلاثين الأخيرة... ومرّة ناداه رئيسه في العمل للمثول أمام لجنة معاينة خاصّة للتحقّق من قدراته الذهنية، تمحورت أسئلتها حول حالة الطقس، ورأيه في أداء سميرة حنبوك، المغنّية التي اشتهرت تلك الأيّام في حفلات الأعراس بأغنية اسمها «ربكة»، وإن كان لديه رسالة يوجّهها للشعب لمناسبة اقتراب أعياد الثورة.

لم يكن لديه رأي في حالة الطقس المتقلّبة، وأداء س. حنبوك، ولا يعرف تضفير الرسائل، واعتبر تلك الساعات التي أنفقها مع اللجنة الموقّرة وانتهت بلا ضرر، ساعات ترفيه كان يستحقّها، بدليل ضحكه المتواصل كلّما تذكّر شيئًا منها.

في المقابل، كانت هناك ساعات كآبة، يستحقّها أيضًا بسبب إفراطه أحيانًا في توقّع المسرّات، مثلًا حين تعرّف في إحدى مناوباته، إلى ممرّضة شابّة تعمل في إحدى دول الخليج العربي، عبرت البوابة قادمة في إجازة، ابتسمت كثيرًا، ورشّته بعطر استثنائي، ربّما كان من جيفنشي أو كوكو شانيل، واقتسمت معه قطعة من بسكويت ويفر، واتّكأت على ساقه وهي تربط حذاءها الأسود ذا السيور المتعدّدة، ثمّ نهضت وانصرفت بسرعة تاركة أحلام يقظة مرهفة تتكوّن في ذهنه، وتموت بعد وقت قليل. أو مثلًا حين رُقِّيَ إلى حارس بوّابة أوّل، وانتظر نهاية الشهر ليستمتع بالزيادة المتوقّعة في راتبه، ليكتشف أنّ راتبه كما هو، ذلك أنّ لقب أوّل لم يكن مجّانيًّا، وعليه أن يدفع ثمنه الذي كان بالضبط ذلك الفرق في راتبه... أو مثلًا حين توقّف أمامه رجل أعمال مهمّ، من الذين يشغلون الرأي العامّ من حين لآخر، بسبب وجوده داخل صفقات تجارية مهمّة بين البلاد وبلاد أخرى بعيدة وثرية، وهو يتّكئ على الباب، ويفتح حقيبته، ويخاطبه بكلّ ودّ: مرحبًا يا خج.

ارتبك يومذاك، فلا أحد يناديه خج إلّا نادرًا، وهذا الرجل بالذات بعيد عن عالمه بدرجة ملفتة، ولولا وجوده في حراسة بوّابة حيوية يمرّ عبرها الناس، مثل هذه، ربّما لم يكن ليلتقيه مطلقًا. ارتبك إذًا وعيناه تراقبان الحقيبة السوداء الناعمة التي يحملها الرجل وتتوقّعان عطاء من نوع خاصّ من ثري مكتمل بالمال ناداه بلقب مهجور يمتلكه ولا يمتلكه في الوقت نفسه، لكنّ رجل

الأعمال، الذي من المفترض أن يلفت نظر خج، بسبب مروره من بوّابة يمرّ عبرها ركّاب الدرجة السياحية، لم يلفت نظره في هذه النقطة، أخرج منديلًا أزرق بحوافّ مذهّبة من حقيبته، مسح به وجهه، ووضعه داخل جيبه، وأعاد إغلاق الحقيبة، ومضى بخطوات رشيقة لا تدلّ أبدًا على عمره. من المؤكّد أنه قرأ اسم حارس البوّابة على الشريط القماشي المثبّت على صدره، وقام باختصاره، ذلك الاختصار غير المستخدم لدى الناس كثيرًا.

ذلك اليوم، وبسبب ذلك الموقف التافه الذي لا يستحقّ تذكّره إذا ما حامت الذكريات في الذهن، تمنّى خج أن يموت ذاك الثري بسكتة قلبية أو دماغية، أو ربو شُعبي حادّ، أو يتعثّر أمام بوّابة المطار بحجر مهمل، متروك هناك، ويرتجّ دماغه. ظلّت تلك الأمنية الشرّيرة والمتجدّدة تتبختر في ذهنه، وتمنعه من التبرّع بابتسامة مفترضة لسيّدة عجوز عبرت من أمامه جليلة ووقورًا بثياب بيضاء، ولامرأة شابّة تشبه نساء الأفلام القديمة، على رأسها قبّعة عريضة من الساتان اللامع وفي إحدى أصابع يدها اليمنى خاتم ذهبي كبير، ولطفل في حوالى الثالثة، يحمل دبًّا ضاحكًا، يتعثّر به ويشير إليه قائلًا: سوبرمان، سوبرمان. أكثر من ذلك، لم ينتبه إلى خروج جارتهم أم هيثم، التي كان يتوقّع قدومها على تلك الطائرة التي حطّت منذ قليل، بعد رحلة بيزنس صغيرة إلى أديس أبابا، إلّا بعد أن لمسته الجارة في رقبته، وطرقعت علكة منفوخة بجانب أذنه.

كان قد امتلأ بالأمنية فعلًا، في الحقيقة تحوّل إلى أمنية ترتدي سروالًا أزرق وقميصًا أبيض، وتنتعل حذاء خشنًا من المطّاط القوي، تتصلّب أمام بوّابة الوصول في المطار. وتذكّر أنّ أمنية مماثلة خنقته منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، حين ذهب مع أخته الكبرى الأرملة إلى إدارة تقسيم الأراضي في وسط العاصمة، محمّلَين بكلّ ما يثبت استحقاق الأخت لأرض صغيرة في أحد مواقف الباصات لإنشاء كشك لبيع المرطّبات حتى تعول أطفالها، ورفض الموظّف المختصّ بإتمام المعاملة آنذاك، أن ينظر إلى الورق حتى. استلمه بلا حماسة، وفتح خزانة جانبية صدئة، ألقاه في داخلها، وقال وهو يضغط على أرقام هاتف ذكي في يده، لعلّه سامسونغ أو آي فون أو أيّ أندرويد آخر:

– تعالي الثلاثاء يا سيّدة.

لم تقل الأخت شيئًا، اختنقت ببكاء صامت، وقال خج:

– اليوم الثلاثاء.

– الثلاثاء القادم يا سيّد، قال الرجل، وأنهى الاتّصال قبل أن يبدأه.

– لماذا ليس اليوم؟ سأل خج، وهذه المرّة كان صوته عاليًا قليلًا.

– لأنّ الأمر يستغرق أسبوعًا.

– ولماذا أسبوعًا؟

طال الحوار المتوتّر من جهة خج، والمتأفّف من جهة موظّف الأراضي الذي يمسك بهاتفه، ويبدأ اتّصالًا جديدًا في كلّ مرّة ويقطعه. نهض أخيرًا معلنًا انتهاء ساعات العمل، وخرج خج وأخته. كانت الأخت ساكنة جدًّا، ولعلّ في داخلها انفعالات قذرة لكنّها لم تطف على أيّ سطح، بينما نمت الأمنية الوغدة في ذهن خج: لماذا لا يموت هذا الرجل؟ كيف يموت؟ بأيّ شيء؟ أدوات الموت كثيرة، منها البسيط ومنها المعقّد، ومنها السهل الذي يميت الناس لدرجة أنّهم لا يدرون إلّا بعد وقت طويل أنّهم ماتوا. كان يتشنّج من ضغط الأمنية، ويتابع الرجل بعينيه وهو يتّجه إلى موقف السيّارات الملاصق لإدارة الأراضي، يفتح باب سيّارة بيضاء عريضة، من نوع سوناتا الكوري، يقودها بسرعة ويفرّ.

الثلاثاء التالي جاء إلى إدارة الأراضي بصحبة أخته ليرى إن كانت الأوراق تحرّكت من الخزانة الصدئة، حيث ألقاها الرجل، أم لا تزال هناك. وجد خلقًا كثيرين يضجّون في المكان، وأصواتًا تطالب بإنجاز المعاملات رحمة بالناس، وأخرى بالقصاص من المفسدين الذين يبيعون الوطن للتجّار والأجانب، وعبارات أخرى فهم بعضها ولم يفهم بعضها الآخر. انتبه إلى أنّ طاولة الموظّف الذي حاوره الأسبوع الماضي كانت مشغولة بموظّف جديد، شابّ وعلى وجهه خدوش، كأنّها بقايا جدري قديم.

سأله:

– أين زميلك الذي يجلس هنا؟

– العمّ إدريس؟

– نعم... لا أعرف... ربّما، ردّ خج، ولم يكن في الحقيقة يعرف اسم الموظّف.

– العمّ إدريس في المستشفى، تعرّض لحادث مروري الثلاثاء الماضي بعد خروجه من العمل.

– معقول؟ كانت الأخت من ردّد هذا.

– معقول؟ هو من قالها هذه المرّة، قالها بعمق أكثر من الأخت، لسبب بسيط، هو أنّ ثمّة أمنية قبيحة كانت ترتجّ في ذهنه الثلاثاء الماضي، تنادي بموت الرجل.

– حالته خطيرة؟ سأل، ولا يدري إن فعل ذلك ليطمئنّ عليه، أم كي يغتبط لمحنته إن كان في محنة.

– كانت كذلك، لكنّه يتحسّن كما سمعت، في أيّ حال، معاملتكم عنده، ويجب انتظاره حتى يشفى ويعود.

لعن خج أمنيته، لعنها بكلّ اللعنات الكريهة التي خطرت على باله، فقد عطّلت مشروع أخته الأرملة، ولا يستطيع أن يتكهّن متى يشفى الموظّف المصاب ويعود إلى العمل. لقد تمنّى أن يموت

ولو حدث ذلك لكُلِّف صاحب وجه الجدري هذا أو أيّ شخص آخر مهمّاته كاملة، لكنّه لم يمت، وتعطّل فقط، ولا بدّ أن يعرف حجم أعطاله، ليخترع حيلًا للصبر، يدلقها على أخته القلقة.

سأل فجأة ما ظنّه سؤالًا مرتبكًا، بلا قيمة، لكنّه قد يحمل ملمحًا جيّدًا في بلد من بلدان العالم الثالث:

– أين أعثر على المدير لأضع حدًّا لهذه المهزلة؟

الموظّف الجديد لم يكن مبدعًا في ردّ فعله على السؤال، بمعنى أنّه لم يكن باردًا أو لا مباليًّا، ولا خرجت من لسانه كلمة نابية موجّهة للعميل. كان تقليديًّا في ردّ فعله، ارتبك، وقطعًا فكّر في أنّ الرجل الضئيل الذي يقف أمامه، قد يكون مهمًّا في حقل مهمّ، مثلًا عامل نظافة في مكتب وزير، أو خادمًا في بيت عسكري مرموق، وأقلّها، مجنّدًا في جهاز الأمن الوطني، يمكن أن يمحو مستقبله بكلمتين أو ثلاث يدوّنها على ورقة حقيرة. مدّ يده إلى الخزانة الصدئة، أخرج أوراقًا كثيرة قلّبها حتى عثر على الأوراق المطلوبة، وقّعها بارتباك، وضع عليها ختم الإدارة الذي أخرجه من خزانة أخرى، وسلّم الورق لخج، قائلًا:

– اذهب إلى المكتب الرقم 7، وسيذهب معكم موظّف لتسليم الأرض. مبروك.

انتهت معاملة الأخت الأرملة واستلمت أرضها الصغيرة في المكان المطلوب، وشرعت بالفعل في تشييد كشك المرطّبات، لكنّ خج لم ينس أن يتتبّع أمنيته التي عطّلت رجلًا، وكان يمكن أن تقتله. سأل عن مكان رقدته، وزاره في عنبر قديم، مهمل، يكتظّ بالكسور والآهات، في المستشفى الحكومي العامّ. بل أكثر من ذلك، حمل إليه شوربة الحمام، والبطاطا المسلوقة، وأكياسًا كثيرة من الترمس، ذي السمعة الجيّدة في تجبير الكسور، شتم ممرّضي العنبر الكسالى، لإهمالهم المريض، وعدم رعايته جيّدًا، وجادل أطبّاء كانوا يمرّون سريعًا، ويختفون، وتعرّف إلى ابنته الجميلة التي كانت في الثانية والعشرين، تدرس القانون في الجامعة الأهلية بتكلفة كبيرة، وتحبّ الشاي بلا حليب، والجبن المضفّر من منتجات «كاف لام»، والممثّل الأميركي براد بيت، الذي تتمنّى لو تطير إلى أحضانه فورًا ولا تعود، واضطرّ إلى أن يهديها قلّامة للأظفار، لأنّ أظفارها كانت طويلة جدًّا، وظنّها بحاجة إلى قلّامة أظفار. أيضًا، أهداها مشطًا ذهبيًّا عريض الأسنان لتسريح الشعر، لأنّ شعرها بدا له منكوشًا ويحتاج إلى تمشيط، وصحبها في جولات كثيرة داخل المستشفى وخارجه، إلى مطاعم ومقاهٍ، ومراكز ثقافية، تعرض فيها أفلام وثائقية عن حضارة قبيلة المايا، وتاريخ صناعة المناطيد في العالم، وقداسة نهر جانجي في الهند، ومواضيع أخرى كثيرة لا تهمّه في شيء. واكتشف أنّها تغنّي بصوت بارد وغبي تظنّه أخّاذًا، وتمثّل أحيانًا مع الطلّاب مقاطع صغيرة من مسرحيات معروفة. التقط صورًا للرجل وسط الأثقال والجبس الذي يحيط بيديه وقدميه، بهاتفه نصف الذكي، الذي يمكن أن ينشط في التصوير والمواقع الإلكترونية، وحمل

صوره إلى السيّدة نونا، مجبّرة الكسور المعروفة، وكان تعرّف إليها مرّة حين عبرت في الصالة قادمة من أوروبّا، وتتباهى بأنّها كانت تجبّر كسورًا معقّدة في إحدى الإمبراطوريات. بمجرّد أن نظرت إلى الصور، أخبرته نونا بأنّ هذه الكسور لن تبرأ أبدًا، وهذا ما حدث، حين تعفّنت أعضاء الموظّف بالبكتيريا، ومات بعد ذلك بشهرين.

عاد إلى أمنيته في حقّ الثري، حاول أن يشلّها بأمنية طيبة مثل: «عامًا سعيدًا، وعمرًا مديدًا»، ولم يستطع، فهنا لا مصلحة في موت الرجل، هو لم يعطّله شخصيًّا بالرغم من أنّه قد يكون عطّل أشخاصًا آخرين، وربّما أضرّ بالاقتصاد الوطني.

في تلك اللحظة، ترك بوّابته بلا حراسة وانطلق خارج المطار، ليشاهد الثري وسط كثيرين يحتضنونه، ويحملون حقائبه التي كان يجرّها أحد العمّال خلفه. لم تكن ثمّة حجارة ناتئة في المكان، ليتعثّر فيها، ولا أسلاك كهرباء عارية لتصعقه الفولتات العشوائية، ولا أيّ شيء آخر باستثناء عربات الأجرة المعتادة، وبعض العربات الخاصّة، وكلب بنّي هرم، يسير ببطء في المكان، ولا يبدو مسعورًا في أيّ حال من الأحوال.

كانت الأمنية قد ذابت بمرور الأيّام، وشاهد الثري ذات يوم في خبر تلفزيوني عن افتتاح متجر جديد للمجوهرات في السوق الكبيرة، وشاهده مرّة أخرى بعد أشهر قليلة، نشيطًا وواسع الخطى يمرّ من أمامه في البوّابة، وهو يقول: «تحيّاتي يا خج، كنت في الصين، اقترب وشمّ رائحة التقدّم... إنّها أعظم رائحة في الوجود».

في الحقيقة، لم يكن حارس البوّابة بحاجة إلى الاقتراب من الرجل ليشمّ رائحة التقدّم الصيني، فهو يعرف ذلك، وكلّ ما يحيط به صيني، بدءًا من التلفزيون المعلّق وسط الصالة التي يحرس بوّابتها وانتهاء بالحذاء المطاطي الذي يضع فيه قدميه، وفيه جرس إنذار ينطلق قويًّا وساخطًا حين يشبّ حريق في المكان، كما أُخْبِر وهو يسلّمه إيّاه. وكان قد قلب الحذاء مرارًا ليعرف أين يوجد الجرس، ولم يهتدِ إلى شيء. أيضًا، وفي سبيل إطفاء ما اشتعل داخله من فضول، جلس مرّة في حوش البيت، كوّم ورقًا مهملًا، وأخشابًا بلا نفع وأطعمة انتهت صلاحيتها، وأحرقها ومرّر الحذاء قريبًا من اللهب، لكنّ شيئًا لم يحدث، كان الحذاء ساكنًا في يده حتى خبت النار من دون أن يطلق صفيرًا أو جرسًا ساخطًا. وقبل أن يطعن في كفاءة الصين كمصنع للتكنولوجيا، سأل أحد زملائه القدامى، فأخبره الزميل بأنّ تلك الأحذية ذكية جدًّا ولا تطلق إنذاراتها لإرواء فضول أحد، فقط تطلقها في الحرائق الحقيقية، ولكن للأسف لم يشبّ أيّ حريق في المكان، حتى غادر الخدمة، وتخلّص من الزيّ والحذاء.

2

التحوّلات تبدو مرعبة أحيانًا.

أن تتحوّل السماء فجأة من صفاء مخلص في شفافيته، إلى حلكة، إلى موت.

أن تتحوّل الطقوس الناعمة للحبّ، إلى طقوس وعرة، يضيع فيها الشرف، وتتبلور المأساة.

أن يتحوّل البحر، من بساط متحضّر رائع إلى بساط عشوائي، والحلم الرقيق إلى كابوس.

لا يذكر خج متى سمع أوّل مرّة بالتحوّلات، ولا ماذا كانت المناسبة، لكن قطعًا يعي أن هناك معنًى موجودًا لكلّ شيء، وسيتعرّف إليه ذات يوم.

في شوارع حي بركة، حيث يقطن، كانت نادية ترزي (ن. ت.)، الطالبة في المدرسة المتوسّطة للبنات، تمشي بتكبّر. ملابسها البنّية مرتّبة على الجسد، ساقاها ممتلئتان، ناعمتان، عيناها واسعتان جدًّا مكتظّتان بالأحلام، وصوتها لم يسمعه أحد تقريبًا، لأنّها لا تستخدمه إلّا نادرًا جدًّا، وفقط حين توجد ضرورة لاستخدامه، مثل أن تنهر كلبًا، أو تشتم قطّة. خطواتها تفرّ من الغزل الذي يطاردها بلا توقّف من كبارٍ وصغارٍ على حدّ سواء، وحقيبتها المدرسية المربوطة على ظهرها دائمًا تبدو سرًّا ملهمًا لأولئك الشباب الذين يتابعونها بشره، ومن بينهم خج. سيقول واحد أنّها حبيبته، سيقول الآخر بل حبيبتي أنا، ويقول ثالث ورابع الشيء ذاته، ليضطرّ خج في لحظة تبوّل عاطفي، إلى أن ينحت بالنار جزءًا كبيرًا من اسمها على ساعده اليسرى، والآخر المتبقي على اليُمنى، في محاولة لإثبات نضجه، ولا يعرف إن كان أثبته أم لا.

كلّ ذلك والفتاة الجميلة غير واثقة في انبهارها بأحد، ولا تحني قامة طموحها لسكّان حي بركة أبدًا، إلى أن اختفت من الحي ذات يوم، حين رصد المتابعون عشرات الفتيات يتمشّين في الشوارع، ولا أثر لـ(ن. ت.) بينهنّ.

ذلك اليوم، بحثوا عنها بجدّية شديدة، بحثوا باستهتار أيضًا، وعرفوا أنّ عائلتها تركت المكان إلى مكان آخر، غير معروف. حتى الجدّ مهلّل عيسى، البحّار القديم الملقّب وسط أهل الحي بجزيرة الكنز، وأحيانًا بالملعون، والذي كان في الغالب، مصدر الصور والأفلام المنحرفة التي

تتحاوم من يد إلى يد، لا يعرف شيئًا. وكانوا لجأوا إليه، كما يلجأون إليه دائمًا، لكنّ سرّ اختفاء أسرة الفتاة لم يكن عنده.

الذي حدث أنّ (ن. ت.) ظهرت مرّة أخرى، ولكن بثياب جديدة، ووهن جديد، ووظيفة لم تخطر على بال الذين كانوا يتابعونها بشره في تلك الأيّام المباركة من عمر العواطف.

لم يكن خج يحسّ بكلّ السنوات التي مرّت، وكان لا يزال يقيم في البيت نفسه، في حي بركة. أبوه ما زال مؤذّنًا في مسجد الحي، وفي وقت فراغه بين الصلوات، يتحدّث عن الزواج والطلاق، وروعة الأنثى إن غنّت أو بكت، أو حتى تمرّغت في التراب لسبب أو لآخر. أمّه كبرت جدًّا لسبب وحيد، هو أنّها أرادت أن تكبر في وقت قياسي. أخته الأرملة التي ساهم في حلّ مشكلتها مع إدارة الأراضي تبيع المرطّبات لتعيش، وتعبث أو تستهتر أحيانًا. وهو شخصيًّا تورّط في وظيفة حارس أمني لبوّابة صالة الوصول في المطار، من دون أيّ طموح أو مثابرة للحصول على طموح.

كانت سنوات عادية لأيّ شخص عادي، يظهر أمل، يفرّ أمل، يرتفع حلم إلى أعلى، ينحدر حلم إلى القاع، الشغف متاح للشغوفين، الأعاصير متاحة للأوغاد، الحوائط متاحة للكتابة عليها، أو التبوّل قربها، والشوارع برمّتها متاحة للطيبة والنزق معًا.

وفي رحلة جوّية قادمة من مكان لا يأتي منه أحد في العادة، عرف في ما بعد أنّه دولة الغابون الأفريقية، شاهد امرأتين ممتلئتين جدًّا، ترتديان ثيابًا زاهية، وتجرّان حقيبتين متينتين، من الواضح أنّهما تحويان غنائم كثيرة. شمّ عطرًا خزفيًّا ينبع من مكان ما، تحرّك فيه شيء بالغ الانحطاط، وحاول أن يلكز بلادة جثمت على تفكيره، ليتعرّف إلى مصدر الخير والشرّ في امرأتين ممتلئتين وأنيقتين، لا تشبهان الأمّهات ولا الأخوات، ولكن بقليل من التروّي العاطفي، يمكن اعتبارهما من نساء الجيران.

قفز من مكان تصلّبه أمام البوّابة، واعترضهما.

– هل من خدمة أؤدّيها سيّدتيّ العظيمتين؟

لغة غريبة استخدمها، مقحمًا العظمة في مكان ربّما لا يناسبها. غير مهمّ، ما دام سيحصل على دواء لفضوله، وقد يحصل على غنيمة قادمة من بعيد.

– نعم، ردّت واحدة.

– جرّ الحقيبتين إلى الخارج لو سمحت.

في تلك اللحظة فقط، أحسّ بالوجه المتكبّر، والعينين الضاجّتين بأشياء كثيرة ملتهبة، والرائحة الخزفية التي كانت تميّز فتاة تمشي بغطرسة في حي بركة منذ أكثر من عشرة أعوام.

– نادية ترزي؟

– نعم أنا.

تلفّت بغزارة، لحست عيناه المكان كلّه، ليعثر أخيرًا على من يسدّ مكانه أمام البوّابة ريثما يعود. إنّه (و. د.)، عامل النظافة الذي يستخدمه ثلثا الموظّفين في تلك المنطقة ليغطّي غيابهم إن غابوا. كنت تجده مرّة حارس بوّابة، ومرّة حمّالًا للأمتعة، ومرّة ضابط جمارك، ومرّة بائعًا لبطاقات شركات الاتّصال، وأوشك مرّة أن يعمل ضابطًا للجوازات، بدلًا من ضابط نزق تعرّف إلى امرأة قادمة من مطار هيثرو، وأراد مطاردتها طمعًا في نفس عميق من رائحة لندن، لولا أنّ المرأة تخلّصت من معرفته فورًا، وهرولت خارجة.

وصل إلى موقف السيّارات، وقد توقّف عن التفكير في أيّ ماض أو حاضر أو مستقبل، شاهد سيّارات الأجرة كثيفة ومتراصّة، وعلى بعضها غبار أملس. ناداه أحدهم، فلم يلتفت إليه، وناولته الجارة القديمة بطاقة طرية، كتب في وسطها بخطّ متعرّج بنفسجي: نادية ترزي – سيّدة أعمال.

لم تبتسم وهي تسلّمه البطاقة وتودّعه بيد لم تبد ناعمة كثيرًا، لكنّ خج فهم أو تأكّد أنّه قد يستفيد من أعمالها. وضع البطاقة في جيبه، وعاد إلى بوّابته وثمّة أغنية ركيكة يحفظها تحاول أن تتمدّد في حلقه.

خج كان متوجّسًا للغاية في زيارته الأولى للسيّدة (ن. ت.)، التي تمّت بعد خمسة أيّام من لقاء البوّابة، بالرغم من أنّها حاولت غرسه في تفاصيل البيت كلّها جلبًا للتآلف، عرّفته إلى الغرف والصالات والملحقات، والأسرّة والمقاعد، والفساتين، وأطقم الشاي والقهوة المرصوصة في الخزانات، عرّفته إلى أيّ قطّة حامت آنذاك، وأيّ كلب نبح، وأيّ بعوضة قد تكون طنّت بجانب أذنه. أسمعته أغنياتها المفضّلة من مسجّل كاسيت رفيع المستوى، من ماركة فيلبس، وأغنيات أخرى قد تكون أغنياته هو المفضّلة بحسب تخمينها، وأحاطت عنقه دقيقتين، بعقد كبير من الخرز الملوّن، قالت أنّه تميمة أفريقية لجلب الحظّ، حصلت عليها من ساحر التقته في الغابون، وحين قرّبته من لحمها في النهاية، وسمحت له باللعنة كاملة، ذهب شيء من توجّسه، وبقي شيء أيضًا.

لم تكن فتاة ليل بلهاء، متاحة للغرباء كيف ما اتّفق، تضع كحلًا زائفًا، وزينة عشوائية، وتمنح جسدًا رخوًا بلا آلام أو أحلام، أو قيم مجيدة. في الحقيقة، لم تكن فتاة ليل إطلاقًا، وإنّما فتاة تقيم في الليل بلا استقرار كامل، حكايات جسدها، تسردها بتناغم، ولمتلقّين تسمّيهم الأعزاء أو الأحباب، وانضمّ خج إليهم موقّتًا، ليس بسبب جرّه حقيبتين ممتلئتين وثقيلتين، في المطار، ذلك اليوم، ولكن لأنّه ذكرى قديمة من أيّام حي بركة، الحي الذي شهد الميلاد والطفولة وبعضًا من الصبا، وكان يمكن أن يشهد المشيب لولا التحوّلات.

ثلاث استضافات فقط في البيت المزركش ذي الطابقين، في حي الزهور الراقي، ثمّ أخبرته، بكلّ أدب، أنّ حظوته انتهت هنا، وعليه أن يبحث عن حظوة بديلة في مكان آخر، إن كان متوهّجًا

ويحسّ بالعطش. والحقيقة أنّ خج كان قد انطفأ من تلقاء نفسه، ولم يرد الاستمرار في اللعنة، بدليل أنّه لم يخبرها بقصّة النحت القديم لاسمها على ذراعيه، والذي أزاله منذ سنوات، لكنّ آثاره بقيت.

جمر التحولات. هذا أقصى ما استطاع أن يفكّر فيه، التحوّلات الوغدة حين تبدو بالفعل وغدة، اللئيمة حين تبدو أكثر من لئيمة.

كانت ثمة نظرة مختلفة عند الجدّ مهلّل، الذي كان حيًّا لا يزال، ونشطًا، ويوزّع الصور والبرامج المنحرفة بكلّ طمأنينة مستخدمًا تقنيّة البلوتوث من هاتف ذكي، بل أكثر من ذلك، قد سمح لعدد من المراهقين بلعب الكرة أحيانًا في حوش بيته الصغير، بشرط أن يسمحوا له بحراسة المرمى، وكان ما أراد، ليصبح بذلك أكبر حارس مرمى في تاريخ الكرة على الإطلاق.

كان خج قد أخبره بالقصّة التي بدأت وانتهت في وقت قياسي، وقبل أن يتكوّن بسببها معنًى من أيّ نوع.

لم يبد الجدّ مندهشًا من تحوّل فتاة جميلة من حي بركة، يعرفها ويعرف أهلها جيّدًا، إلى بائعة هوى أحيانًا. تلك في رأيه صيغة متوفّرة من صيغ الحياة، غطّت حقبًا كثيرة في التاريخ. لكنّه ركّز على الحقيبتين الثقيلتين بشكل هستيري.

قال:

– لم تأخذ أجرًا ماديًّا على جرّ حقيبتي الممنوعات. ما نلته من السيّدة ليس كافيًا قطّ.

– ممنوعات؟

– نعم، داخل الحقيبتين اللتين جررتهما، ممنوعات، هذا مؤكّد، وكان يمكن أن تدخل السجن مدى الحياة. أبسط شيء أن يمسك بك أحد رجال الأمن عند البوّابة أو أمام المطار، وتنكر السيّدتان معرفتهما بالحقيبتين.

ضحك خج، أو ربّما ابتسم، فلم تكن ثمّة مسافة كبيرة بين الضحكة والابتسامة عند شخص لا يستخدم أيًّا منهما كثيرًا.

في كثير من الأحيان، يبدو الجدّ مخرّفًا بالرغم من امتلاكه ذاكرة حيّة، وذهنًا لا ينتظر إيحاء من أيّ نوع، بل يخترع الإيحاءات كلّها. لو كانت ثمّة ممنوعات في حقيبة السيّدتين (ن. ت.) والأخرى التي لم يعرف اسمها، ولم يرها مرّة أخرى قطّ، لكانت اكتشفتها السلطات عند مرورها عبر أجهزتها، لا بدّ، قبل أن تصل إلى بوّابته، وهو الحارس الأمني المختصّ بالمشاكل الطارئة، والذي لا علاقة له بالحقائب ومحتوياتها. قرأ الجدّ ضحكته، أو ابتسامته، لا فرق، ومؤكّد قرأ تلك الأفكار المتهافتة التي تولّدت في ذهنه عن الرقابة والسلطات، والسجون، وكادت تصل إلى حكم الإعدام، لولا حكّة مفاجئة في الأنف أوقفت التسلسل.

قال الجدّ:

– من المفترض أن تعرف أنّ كلّ ممنوع يمكن أن يمرّ برقابات الدنيا كلّها، ما دام هناك من يستطيع تدبّر ذلك، وامرأة مثل صاحبتنا تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة.

نعم تستطيع، وقد تذكّر الآن أنّه سمع عن مثل تلك «الاستطاعات»، وشاهد مرّة، وهو متصلّب عند بوّابته، ثلاثة عسكريين برتب مخيفة، يدخلون ويعودون وقد جرّوا ثلاث حقائب متباينة الطول والعرض بدت ثقيلة جدًّا، وخلفهم رجل يعتمر عمامة، ويضع أخرى على كتفه اليُمنى، وتفوح منه رائحة عنبر معالج بالتوابل، يمشي بزهو غريب.

– إذًا، كيف عرفت أنّها ممنوعات؟ يسأل، ويعرف أنّ السؤال تقليدي، ومنتشر في مثل هذه المواقف، ولا يتوقّع إجابة قاطعة، ذلك أنّ الجدّ لم يكن داخل إحدى الحقيبتين، ولا من الطاقم الذي سهّل عبورهما، كي يمنح دليلًا.

كان الجدّ – الذي لم يكن جدًّا حقيقيًّا لأنّه ببساطة لم يسعَ إلى أن يكون جدًّا حقيقيًّا متخمًا بالأحفاد، أو حتى أبًا، أو في أقلّ تقدير، زوجًا لامرأة لا تنجب الذرّية، متّكئًا على سرير من الحبال في حوش بيته القديم الخالي من كلّ روائح البشر عدا رائحته، يتحدّث عن البحر أيّام كان البحر قصصًا مشوّقة، وعالمًا لا تستطيع إلّا أن ترتعش حين يُذكر. يقسم أنّه شاهد الجنّيات يرقصن عاريات أمام البحّارة، ويسمحن لهم بلمسهنّ، أو حتى تقبيلهنّ ومضاجعتهنّ، وقد ذهب معهنّ عدد من البحّارة إلى عوالم مجهولة، وعادوا أنقياء حتى من مخاط الأنف، صامتين ومتأمّلين، ولا يذكرون شيئًا. هو أيضًا ذهب مع واحدة، لكنّه لم يمكث طويلًا في القاع، قاوم العشق السامّ، وعاد إلى سفينته.

نهض الجدّ من اتّكاءته قليلًا، بدا نصف متّكئ وأضاف:

– إنّها ممنوعات، تأكّد من ذلك... كوكايين، بانغو، ذهب روسي، تمائم أفريقية، أساور الملكة حتشبسوت، شيء من هذا القبيل.

تأمّله خج، وهو في نصف الاتّكاءة تلك، وجهه لم يعد صالحًا لمدحه أو ذمّه على الإطلاق، عيناه بعيدتان جدًّا عن وميض العيون وبسالتها في العتاب أو التقصّي، ساقاه نحيفتان وخشنتان، لكن لا تزالان قادرتين على المشي من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا، يداه ثابتتان وتستطيعان حمل بطّيخة ناضجة، وأنبوبة بوتاغاز، وقفّة ممتلئة بالفواكه والخضروات، وأشياء أخرى كثيرة، قد يكون من ضمنها مفتاح إنكليزي، وأطفال من عمر سنة إلى ستّ سنوات...

– ماذا تريدني أن أفعل إذًا؟

كانت صيغة السؤال، في الواقع، ضعيفة جدًّا، فليس الجدّ من يقرر له ما يفعله، لم تبد أيضًا صيغة للاستشارة، إنّها صيغة غير ملزمة، فهم الجدّ عدم إلزامها، تجاهل كلّ شيء ولم يردّ. حكّ

رأسه، لمس أنفه، عطس، سعل، نهض من نصف الاتّكاءة، ودخل صالة بيته، ومن الداخل انبعث فجأة لحن راقص، وأغنية ثرية، تُؤدّى بصوت لا يودّ أن يشيخ أبدًا.

أيّام كثيرة مرّت، فيها أحداث مهمّة بكلّ تأكيد، وأخرى تافهة جدًّا، لدرجة أنّه ليس من اللائق تذكّرها. أبوه مات فجأة أثناء سرده الحكايات الشبقية عن الزوجات والمطلّقات، والحوريات اللائي ينتظرن سعداء الحظّ عند أبواب الجنّة. أمّه في الخمسين والسبعين معًا، أحدهما عمرها، والآخر عمر مظهرها. طائرة بلا أضواء اندسّت في الأجواء المحلّية، ودمّرت منشأة تخصّ النظام الحاكم، يبدو أنّها كانت تصنع مكائد خفية، وأعلنت وزارة الدفاع عن أسفها لأنّ مراقب الأجواء في تلك الليلة نسي نظّارته في البيت. سياسي انتحر بمسدّس عيار 25 ملّم لأنّ السلطة وعدته بوزارة الصناعة، ووجد نفسه حين أعلنت أسماء الوزراء وزيرًا للصحّة. لعن الأوبئة والأمراض المستوطنة، والممرّضات وعيادات الأطبّاء، وانتحر. تحدّثوا كثيرًا عن التنمية والارتقاء بالإنسان ومحاربة الظلم، ولم تحدث تنمية ولا ارتقى الإنسان، وأصبح الظلم مكوّنًا أصيلًا من مكوّنات المجتمع. تذكّر خج أنّه كاد يصبح شاعرًا ذات يوم، حين طلبت منه فتاة مليحة صادفها في عرس من أعراس حي بركة، أن يكتب عينيها، وضحكتها، ونبضات قلبها، لولا أنّ قاموسه اللغوي لم يكن جيّدًا. تذكّر أنّ مرضًا بغيضًا اسمه: الجمبورو انتشر وسط دجاج الوطن، فماتت أعداد كبيرة منه، وزوج مستر فهمي، اليوناني الأصل، والمعروف بتمويله سباقات الخيول، ببغّاءه الأفريقي كركور، من أنثى ببغّاء برتغالية اشتراها من سائح وأقام للطائرين اللذين وضعا في قفص واحد مزركش، عرسًا بهيجًا حافلًا بالغرابة. تذكّر أنّ الحوت، مغنّي الشباب الطيّب القلب، مات في بلاد بعيدة وجاءوا به جسدًا ساكنًا وحزينًا في طائرة قيل أنّ محرّكاتها كانت تبكي، وقد تحوّل المطار بكامله إلى ساحة مأتم كبيرة، بكى فيها الناس جميعًا. حتى هو، خج، بالرغم من أنّه لم يستطع مغادرة بوّابته بسبب الفوضى واحتمال حدوث خلل ما، إلّا أنّه بكى بوقار رسمي، وهو متصلّب في وقفته وزيّه الفضفاض يهتزّ على جسده، وفوجئ بأنّ فتاة مليحة احتضنته فجأة، واختلطت دموعهما، وحين أفلتها اكتشف أنّها ابنة موظّف الأراضي الذي أماتته أمنيته ذات يوم، تلك الفتاة التي تحبّ الفوضى وبراد بيت، وتغنّي بصوت غبي، تظنّه صوت كروان. لم يسألها عن أيّ شيء، وهي نفسها بدت متعجّلة للحاق بموكب الحزن، وشاهد من بعيد أحد الشباب الحزانى، يبدو أنّه يعرفها، يشدّ غطاء رأسها من الخلف، وتلتفت إليه، تسقط على صدره، وتواصل البكاء.

الذي حدث هو أنّ السيّدة (ن. ت.) ظهرت مرّة أخرى، وهذه المرّة كان يصحبها الثري إيّاه، صاحب الصفقات الكبيرة المشبوهة، الذي يصيح بالحارس كلّما مرّ ببوّابته: مرحبًا يا خج.

هذه المرّة كانت المناداة أعمق، ولا يدري خج السبب في عمقها، حين قال الثري موجّهًا إليه الكلام، وعيناه هناك، في إحدي زاويتي فم السيّدة (ن. ت.):

– متى تنتهي مناوبتك يا خج؟

– بعد ساعتين، قال خج، وانساق تلقائيًّا لحركة النظر إلى الساعة، التي تحدث مع كلّ الناس تقريبًا حتى لو لم يكونوا يملكون ساعات، بمجرّد أن يطرح سؤال له علاقة بالوقت: كم الساعة؟... أيّ ساعة؟ ساعة أم أكثر؟

ساعة خج كانت سايكو، بيضاء قديمة، فيها خدوش ورمل، لكن ما زالت تمنح الوقت بالطريقة نفسها التي تمنحه بها الساعات الحديثة.

– جيّد، جيّد، ردّد الثري.

ترى ما اسمه؟ هذا الرجل بالذات لديه سبعة أو ثمانية أسماء، بعضها صالح للاستعمال وبعضها شديد التعقيد، وربّما يكون «القعقاع» أحد أسمائه. خج سيسمّيه «عجبنا»، لا لشيء سوى لأنّه مغرم بذلك الاسم، ويتمنّى أن يستخدمه في حقّ أحد، فلم يصادف شخصًا يملكه من قبل قط.

– جيّد... جيّد، ردّدت المرأة وقالت:

– سندعوك إلى عشاء.

ما المناسبة؟ خصوصًا أنّ السيّدة (ن. ت.) تخلّصت منه منذ فترة، من دون أن تسمح له بالإقامة في ودّها أكثر من ثلاث مرّات.

ما هي المناسبة؟

لو كانا يهرّبان الممنوعات كما قال الجدّ مهلّل، فليس هو الجهة التي يكون التنسيق معها. كان بلا صلاحيات في هذه المسألة، وأقصى ما يمكن أن يفعله، بجانب حراسته البوّابة، هو أن يساعد في جرّ الحقائب للبعض، وربّما يحمل طفلًا شقيًّا على ظهره، ويوصله إلى الشارع، أو يمسك جدّة ضائعة من يدها، يسلّمها لأيّ شرطي، ومرّة وبمصادفة بحتة، كان يحمل كيسًا من البلاستيك في جيبه، أعطاه لرجل مصاب بالغثيان، استفرغ داخله، وأعاده إليه.

توجّس آخر: لو كان مهمًّا للسيّدة (ن. ت.) التي لم تتّضح علاقتها بالثري العجوز عجبنا، بعد، لما تخلّصت منه، ولأبقته قريبًا، أو قرّبته أكثر، بمنحه وظيفة اسمية في مملكتها، براتب ملغوم، وهؤلاء الناس أشياؤهم كلّها ملغومة، حتى جسد المرأة، كان فيه لظى عال، تذوّقه وخاف جدًّا.

كان ثمّة صوت يهشّ أفكاره بعيدًا، صوت عجبنا وهو يقول له:

– ننتظرك في كافتيريا خلّاق، تعرفها بكلّ تأكيد.

نعم يعرفها. كانت مقهًى غير تقليدي، افتتح قرب المطار، منذ ثلاثة أعوام تقريبًا. صاحبها خلّاق، يبدو من المتصوّفة، بثيابه الخضراء، وشعره المضفر، ومسبحة ضخمة من ثمار اللالوب تحيط برقبته، ونظرة تشبه كثيرًا نظرات العرّافين حين يعثرون على أجوبة تخصّ الروح.

خج يعرف المكان. ذهب إليه أوّل مرّة بصحبة ابنة موظّف الأراضي الذي مات من مضاعفات أمنيته، أو بسبب انتهاء عمره لكن صودف أنّ هناك أمنية قبيحة في حقّه. لم تكن بينه وبين البنت الحالمة قصّة حبّ ولا صداقة، فقط رفقة كان في الغالب مجرّد تابع فيها، مستمعًا للتفاهات التي ترد على لسانها، خاصّة حين تتحدّث عن زهد والدها، وأخلاقه الرفيعة، ورفضه المناصب العليا، وبقائه موظّفًا عاديًّا، في إدارة الأراضي، من أجل خدمة البسطاء، بينما يوشك أن يمسك بلسانها وينتزعه من حلقها. هي لم تخبره باسمها قطّ بالرغم من أنّه حاول معرفته، ولم تسأله عن اسمه أو عن علاقته بوالدها، لدرجة أن يزوره يوميًّا حاملًا موادّ غذائية جيّدة، وهو لم يجهّز جوابًا إن سألته، ثمّ مضت أيّام رقاد الرجل ورحيله، وانتهى الأمر.

ذهب إلى المكان مرّة أخرى وحده، وانبهر بنظرات خلّاق، وخالها تمسّد روحه، وتمنحه بعض السكينة. أيضًا، بهره صانع الآيس كريم الراقص بطريقة تركية شاهدها في المسلسلات الدرامية، والنادلة الإثيوبية التي ينادونها: شفقة، وتبدو بالفعل شفقة عظيمة، خالها تشفق على المكان والجالسين فيه، والمارّين حوله وبالقرب منه، ويمكن أن تشفق على الأحياء المجاورة أيضًا.

الذي لم يكن يعرفه خج حتى تلك الساعة وقد يعرفه في ما بعد أو لا يعرفه أبدًا، أنّ خلّاق الصوفي، صاحب المقهى، هو اللواء أمن: ط. ط.، وأنّ صانع الآيس كريم الراقص بالطريقة التركية هو المقدّم أمن: ط. ط. 2، وأنّ النادلة الإثيوبية شفقة لم تكن إثيوبية، ولا تعرف عن إثيوبيا أكثر من أنّها دولة أفريقية خضراء، يحكمها رجل وسيم، قد يمنح جائزة دولية في ما بعد، إنّها الرقيب ط. ط. 3. حتى عمّال النظافة، والطبّاخ المتقدّم في السن، والمتسوّل الرثّ، الذي يجلس عند الباب، والذباب المتطاير، والرمل على الأحذية، وسيّارة التوصيلات الخارجية، كلّ ذلك تابع لجهاز الأمن.

– اتّفقنا، قال خج، وفي نيّته أن يذهب فعلًا برغم توجّسه.

لن يحدث شيء، سيتعشّى ويتخم ويتجشّأ بكلّ رعونة، ويذهب في النهاية إلى بيته، ولن يكون مضطرًّا إلى جرّ حقائب الممنوعات. لكن، ما أدراه أنّها كانت ممنوعات؟ الجدّ مهلّل يتحدّث أحيانًا بلا وعي، ومنذ ثلاثة أيّام فقط شاهده في أحد محالّ السوبر ماركت القريبة من حي بركة، يقلّب زجاجة فيها خضروات مخلّلة، وهو يصيح: نبات الخشخاش، نبات الخشخاش المخدّر يا سادة، ثمّ يتركها ويرفع أخرى فيها مادّة حمراء، لعلّها صلصة الطماطم، أو دبس الرمّان، ويصرخ: نبيذ أحمر... نبيذ أحمر يا سادة.

3

قبل أقلّ من نصف ساعة على موعد خج، مع الثري عجبنا، والسيّدة (ن. ت.)، كان عامل النظافة البديل لكلّ الوظائف (و. د.) يحوم في المكان. كان قد سلّم مهمّة الإشراف على وصول الحقائب للموظّف الأصلي، الذي غاب في الخارج نصف ساعة استمع خلالها إلى جدّال سياسي يدور بين مجموعة من الناس حول الأحداث الجارية في البلاد. غازل تماضر وجع، بائعة الشاي المتوسطة العمر، المرابطة أمام بوّابة المطار، وابنتها، وبنت أختها، بعبارات الركاكة نفسها، ودخّن سيجارتين من نوع برنجي المرّ، الذي يسبّب التهابات في أيّ جزء من الجسم، حتى البروستات.

كان عامل النظافة يبحث عن تغطية بكلّ تأكيد، عن واحدة من تلك التغطيات التي تحوّلت بمرور الوقت إلى بديل متقن لكلّ الأحلام التي سقطت عنده، ومن بين الوظائف التي كان يشغلها موقّتًا وبلا أيّ عائد مادّي، ثمّة ما لا تجرؤ أحلامه على تنصيبها في ليالي البؤس أو نهاراته. مثلًا تعبئة طلبات الحصول على أرقام في شركات الاتّصالات المختلفة المرابطة في المطار، تفتيش الحقائب، خاصّة حقائب اليد عند السيّدات، التي تمنحه فرصة اختلاس قلم كحل أو إصبع مانيكير، أو روج أحمر، لاستخدامها في تزيين لوحة امرأة مرسومة على جدار غرفته، بمواجهة سريره، لم يكن هو من رسمها، بل وجدها هناك حين منح تلك الغرفة التي يتعاقب عليها عمّال النظافة باستمرار.

ناداه خج بصوت كئيب، وربّما لم يكن كئيبًا، لكنّ الجوع لوّنه قليلًا:

– تعال... تعال يا وغد.

جاء مسرعًا، وبلا أيّ كلمة، تصلّد أمام البوّابة متّخذًا وضعية الحارس. وقطعًا، سيسلّم البوّابة لبديل خج الذي قد يأتي في موعد مناوبته، وقد يتأخّر لأيّ سبب وهو مطمئنّ أنّ البوّابة في حراسة شخص ما. وبرغم أنّ زيّ عمّال النظافة مختلف عن أزياء الموظّفين الباقين إلّا أنّ لا أحد ينتبه إلى ذلك، وغالبًا ينتبه المسؤولون وحدهم، لكن لا يهمّ، ما دام العمل يمضي عاديًّا.

في كافتيريا خلّاق، كان النشاط كثيفًا، نشاطًا متوقّعًا في مقهًى غير تقليدي، يقدّم أشياء لا يقدّمها مقهًى آخر، مثل عصير الصمغ العربي بنكهات متعدّدة، ويديره رجل صوفي، لا يعرف هويّته أحد. كان البعض يقبّلون يده، ويلمسون جبهته المستطيلة، أو أنفه الغاطس قليلًا في الوجه، ويسألونه البركة، ولا يعرفون أنّهم يسألون عن خضرة في صحراء.

دخل خج المقهى، ودهمه فجأة إحساس بأنّه بهيمة، ولا يعرف السبب في ذلك، ولطالما دهمته أحاسيس مختلفة عند دخول أماكن لا يرتادها كثيرًا، ومرّة أحسّ بأنّه قرد سيّئ الحظّ حين دخل إحدى الجامعات بصحبة أحد أقاربه الطلّاب.

حاول أن يخرج من المقهى، لكنّ يد عجبنا كانت قريبة من الباب في تلك اللحظة، فشدّته إلى الداخل. كانت السيّدة (ن. ت.)، تجلس إلى طاولة نظيفة عليها مزهريّة وشمعة حمراء، وقائمة طعام على شكل دفتر ممزّق، ولافتة فضّية كتب عليها «محجوز».

كان العشاء غريبًا حقًّا، ولم يتوقّع خج، حتى في أقصى درجة من درجات وساوسه، أنّه سيكون كذلك. سمّاه عشاء الموبايلات لأنّ عجبنا لم يتحدّث كثيرًا، لم يطرح موضوعًا للنقاش، أو ينتظر أن يطرح أحد موضوعًا، وظلّ ممسكًا بهاتفه المضيء، يقلّب برامجه، يبتسم أو يضحك، أو يلوي ملامحه، أحيانًا يكتب رسالة، وأحيانًا يبدو متهيّجًا من قراءة رسالة، وحتى حين جاء العشاء، وقبل أن يلعق حساء العدس بالثوم الذي طلبه، صوّر الإناء، والملعقة، ومنديل الورق، وأرسل الصورة إلى شخص ما، لعلّه زوجته، أو أحد أبنائه المرابطين على الهواتف. (ن. ت.) أيضًا كانت منشغلة، وهذه كانت تتلقّى مكالمة طويلة جدًّا، من شخص لم تشر إلى اسمه قطّ، بدأت بمجرّد أن جاء العشاء، ولم تنته حتى بعد أن غادرا لدرجة أنّها طلبت والهاتف على أذنها، أن يُجهَّز لها الطبق لتحمله إلى البيت. خج كان لديه هاتف نصف ذكي، وكان من الممكن استخدامه في أيّ غباء من تلك الغباءات المتوفّرة في برامجه، وكان أضاف إليه مؤخّرًا لعبة اسمها السفيه، وفيها يستخدم اللاعب الأزرار لمطاردة لسان مقطوع، يشتم بلا توقّف: دوق، دونكي، دوق، دونكي، دوق... دونكي. كان يلعبها في أوقات فراغه، وهذا العشاء وقت فراغ بلا شكّ، لكنّه سيتعشّى بغض النظر عن وجود عجبنا و(ن. ت.)، أو عدم وجودهما. طلب نصف دجاجة مطهوّة بطريقة خاصّة، اسمها «طريقة خلّاق» كما هو مكتوب في قائمة الطعام، واستمتع كثيرًا بطعم الأعشاب والصلصة، وخيّل إليه بعد أن نضب الطبق أنّه أكل ساق سلحفاة، لكنّه لم يكن متأكّدًا.

فجأة، نظر الجميع إلى ساعاتهم في الوقت نفسه، ساعة عجبنا كانت ذهبية كبيرة، مؤكّد أنّها رولكس أصلية، أو من نوع فيليب شاريول النادر. ساعة (ن. ت.) رمادية خفيفة، أنيقة، ربّما كانت رادو أو موفادو، وساعة خج هي السايكو القديمة التي لن تستسلم للفناء بسهولة. خرجوا من

المقهى، ولم ينتظر خج أن يرى أيّ إضافات، مثل السيّارات والأضواء، والسائقين إن وجدوا، بل أسرع إلى محطّة الحافلات القريبة، وهو يصيح: إلى اللقاء.

لم يحسّ قط بأنّه كان محتفًى به في دعوة خاصّة. بحث عن الهواجس كلّها، أعادها إلى قلبه مرّة أخرى: لا بدّ أنّ هناك شيئًا ما... لا بدّ. في الحافلة التي استقلّها إلى حي بركة، وكانت شبه خالية، تعلّق بصره بصورة لساعة رملية مثبّتة إلى يمين مقود السائق، وتذكّر أنّ الجدّ مهلّل لديه ساعة رملية يستخدمها في معرفة الوقت بكلّ جدّية، أخبره بأنّه نهبها من آخر سفينة عمل فيها، وكانت من اليونان. حين ركب واحد يحمل ديكًا نائمًا من إحدى المحطّات التي توقّفت فيها الحافلة، ترك خج التحديق في الساعة، وانشغل بمراقبة الديك النائم بعمق لدرجة أنّ كلّ اهتزازات الحافلة لم توقظه. انشغل بالفعل وتحرّك من مقعده بحذر، اقترب من الرجل الممسك بالديك، وكان في حوالى الخمسين، له شاربان أبيضان، ولحية بيضاء أيضًا، ويتنفّس بصوت فيه أزيز، تمامًا مثل مرضى الربو. سأله:

– لماذا لا يستيقظ الديك يا أخ؟

– لأنّه ميت. أنا قتلته، ردّ الرجل ببساطة من دون أن يتغيّر وضع عينيه، وكانتا مثبّتتين على النافذة، ترصدان الطريق.

ارتبك خج، عاد إلى مقعده، وبدأ يشمّ رائحة جسم ميت لدرجة أنّه غطّى أنفه بيده. ويبدو أنّه نام في النهاية، لأنّه استيقظ فجأة على يدّ تهزّه، ووجد السائق، ابن عمّه التيتم، أمامه واستغرب لحظات فقط اكتشف بعد ذلك أنّه أمام بيته، وأنّه كان يستقلّ حافلة ابن عمّه من دون أن يدري.

سؤال الهدف من دعوته إلى عشاء الموبايلات ظلّ يشغله طوال الليل، بالطريقة نفسها التي تشغل بها الحمّى أحدهم، أو تشغله بعوضة طنّانة مقاوِمة للمبيدات. ظلّ يقلّبه ويقلّبه، ويحكّه ويدميه، ولا يعثر على إجابة أو حتى شبه إجابة. وفي الحادية عشرة صباحًا، كان مكتملًا في زيّه الرسمي يمشي ببطء وإرهاق إلى محطّة الحافلات، ليلحق بمواعيد مناوبته في المطار، حين اعترضه شخصان يحمل أحدهما دفترًا عريضًا، غلافه أحمر، والآخر يحمل بطّارية نحيلة حمراء. مؤكّد كان الرجلان من رجال الأمن.

سأله حامل البطّارية:

– هل أنت خضر جابر؟

بدا له اسمه غير لطيف وهو ينطق بلسان خشن، من المؤكّد أنّه كان يلعق بؤسًا ما، في مكان ما، لسان فيه كثير من النتوءات والخربشة، ولاحظ خج أنّه كبير ومغطّى بلعاب أكثر من العادة. سيسمّي الرجل «اللعّاق»، موقّتًا، حتى يعرف هوّيته وما يريد. والآخر صاحب الدفتر، سيسمّيه

«غربة»، لأنّ وجهه ذكّره بأغنية قديمة اسمها غربة، كانت تردّد منذ سنوات في الأعراس، بالرغم من أنّ الناس لا يطربون لها، والبنات لا يرقصن على إيقاعها.

– نعم... اسمي خضر جابر، ويمكنك مناداتي خج، قال وضحك، تلك الضحكة التي يمكن أن تكون ضحكة أو ابتسامة، بحسب تقدير من يسمع ويشاهد حين تطلق، لكن لا اللعّاق ولا غربة شاركاه أفعال شفتيه.

صرخ اللعّاق:

خج... بج هذا شأنك، تعال معنا.

صدم بكلّ تأكيد، وأحيانًا يصدم الشخص من أشياء أقلّ من الصراخ وخشونة الصوت، أشياء مثل أن يتحسّس فروة رأسه بلا هدف معيّن ليعثر على قملة شبعانة، أو مثل أن يصحو فجأة آخر الليل بعد صراع بديع مع حلم ناعم فيه احتضان ونزق، ليكتشف أنّ ما حدث كان حلمًا، بل حتى أقلّ كثيرًا من ذلك، مثل أن يقف أمام المرآة، ويعثر على شعرة بيضاء في شاربيه الأسودين المنسّقين.

تلفّت ببَله، بالطريقة نفسها التي يبحث بها عادة عن عامل النظافة البديل في تغطية الوظائف بالمطار. كان الشارع مطروقًا بعادية مطلقة، فيه رجال ونساء وأطفال، فيه كلاب وقطط، وزواحف، وطلاب متسرّبون من ملل الدراسة، ومتسوّلون، وشخصان يبيعان حلوى غزل البنات، وتلك المرأة التي اسمها طيّبة ولم تكن طيّبة قطّ، والأخرى التي اسمها عواطف ولم تكن عاطفية، وواحدة ثالثة اسمها خلود، مصابة بمرض مقلق يسير بها إلى النهاية. كان من الأجدر لخج أن يسأل: من أنتما؟ أو ماذا حدث؟ أو ماذا تريدان؟ إلى آخر تلك الأسئلة السطحية، المعتادة في مثل تلك الظروف، لكنّه لم يفعل. والغريب في الأمر أنّ أحد تلك الأسئلة طرح بالفعل، والذي طرحه طالب في المرحلة الثانوية كان فارًّا من حصّة الفنون، يقيم في الجوار، ويعرف خج، حين شاهده محاصرًا بغريبين طويلين وعريضين:

– ماذا يحدث؟

ذلك المراهق، واسمه فرح، كان سيّئ الحظّ فعلًا مع الأسف، لأنّ اللعّاق بالتحديد، كان قد رصده منذ أيّام في تظاهرة طلّابية، كان فيها مشتعلًا بالحماسة، ومحمولًا على أكتاف زملائه، يصرخ: كلاب الأمن... كلاب الأمن، ولا يدري اللعّاق لماذا فهم وقتذاك بأنّه شخصيًّا المقصود بذلك الوصف، وأنّ صراخ فرح لم يتّقد إلّا من أجله، وفي لحظة، بدأ يتحسّس جسده، ليتأكّد من أنّه ليس كلبًا، أكثر من ذلك، جرّب صوته وصاح: يسقط... يسقط، من دون أن يحدّد هوية الساقط، وتأكّد أنّ صوته حقيقي وليس نباح كلب، ثمّ أخرج هاتفه الذكي، والتقط صورًا متعدّدة للطالب، حلقه مفتوح، ويداه إلى أعلى في معظمها، وتبعه بعد أن تفرّقت التظاهرة إلى باب بيته، صوّر أمه

وهي تفتح الباب بفستان أبيض عليه بقع من زيت الطعام، وأخته الصغرى، وهي عائدة من المدرسة، تبكي بسبب ضيق الحذاء الجديد على قدميها، وجدّته لأمه التي كانت تتمشّى في الجوار، لتعالج تصلّب ساقيها، وجارهم الذي مرّ في تلك الساعة، وقال: السلام عليكم. انتظر ساعات، وصوّر والد فرح، العائد من العمل بسيّارة بيضاء صغيرة مكتوب عليها «إدارة البريد – طرود عاجلة»، ومعه ضيف من أقاربه قدم حديثًا من أستراليا، وجاء به الأب للغداء.

برك اللعّاق قرب البيت يومين متتالين، لا يبرح المكان إلّا ليأكل سندوتشات البيض الضحلة في مطعم عشوائي قريب، أو يفرغ أحشاءه في حمّام عامّ قذر، لم تشيّده الدولة، ولكن شيّده بعض المواطنين في تلك المنطقة. وحين كتب تقريره في النهاية، عن عائلة فرح، ودورها المفترض في الاضطرابات الحادثة في البلاد، ورفعه إلى رئيسه، بصق الرئيس على التقرير، مزّقه إلى أكثر من مئة قطعة، وقال للعّاق: فاشل من يكتب تقريرًا عن طفل وأسرة لا علاقة لها بالأحداث الجارية.

اللعّاق لم ينس كلّ ذلك، وانسياقًا وراء الضغينة التي اشتعلت في قلبه، أصدر حكمه على الولد المراهق: هذا الولد سيموت يومًا.

بالطبع، سيموت يومًا، لكن غير معروف إن كان سيموت في سنّ الشباب، أو سنّ الكهولة، بيد اللعّاق، أو غيره من أدوات الموت العنيفة والرحيمة.

لم يجب اللعّاق عن سؤال الولد، ولم ينظر إليه بأكثر من نظرة عادية، يمكن أن ينظر بها حتى إلى أمه أو خالته، لم يتحسّس سلاحه في جيب سرواله، ولم يهرع إلى بطاقته الأمنية في جيب قميصه الأخضر، نصف الكم، يلمسها، أو يخرجها، بل قال مرّة أخرى، مخاطبًا خج:

– تعال معنا.

غربة من ناحيته كان مسالمًا، في الحقيقة كان بليدًا في تفاعله، ويبدو أنّه على موعد مع شخص ما، في الغالب فتاة، من مجموعة فتيات بسيطات وسطحيات يعرفهنّ ويلتقيهنّ من حين لآخر عند بائعة شاي، تحت ظلّ شجرة في شارع ما، ليسألهنّ كيف الحال؟ ويطلبن منه شراء السندوتشات وتعبئة هواتفهنّ برصيد المكالمات، لأنّه لم يكفّ عن النظر إلى ساعته، وإخراج هاتفه من جيبه، بين لحظة وأخرى، وفتح برنامج الرسائل، والعبث فيه، من دون أن يرسل شيئًا... لم يتابع الموقف جيّدًا، في الحقيقة نسي تمامًا أنّ هناك موقفًا أمنيًّا يجب متابعته. وقال فجأة وكان صوته متوحّشًا، عنيفًا:

– مباراة الهلال والمرّيخ أمس، كم كانت النتيجة؟

اللعّاق تصرّف بحزم، لم يجب عن سؤال زميله الخالي من أيّ طعم للمهمّات الضرورية، وأمسك خج من يده، حمله بلا مشقّة، ألقى به على ظهر سيّارة لاند كروزر مكشوفة تعمل

بالغازولين من تلك التي يستخدمها الأمن بكثافة واكتسبت سمعة سيّئة من كثرة ما اقترفت من ذنوب، وصعد خلفه.

غير معروف إن كان غربة عاد إلى وعيه أم لا، لكنّه تولّى القيادة، وهاتفه أمامه على مقود السيّارة. وأهل حي بركة، ومن تصادف وجودهم من الغرباء في تلك اللحظة، لم يقدّموا شيئًا كثيرًا، مجرّد همهمة، أو صيحات احتجاج خافتة ولا شيء آخر... حتى انتصار المعروفة بسوابقها في كسر الزجاج الأمامي لسيّارات الدفع الرباعي، سواء سيّارات أمن أو سيّارات أشخاص عاديين، والتي جاءت في اللحظات الأخيرة من المشهد، بدت شبه مشلولة، والحجر في يدها، وقيل أنّها تذكّرت السجن، وقيل العكس، وقيل تذكّرت ما قبل السجن، تلك الغرف المعتمة التي تُجرى فيها التحقيقات عادة.

خج لم يفعل شيئًا ليوضع على ظهر سيّارة أمنية من ذلك النوع المكروه، في الأقلّ بحسب رأيه، وأقصى ما فعله ضدّ السلطة، أنّه بقي في بيته، ذلك اليوم الذي دعت فيه جماعات التغيير التي تقود المعارضة إلى الإضراب الشامل. يومذاك، لم تقع أيّ خسائر في المطار، كان عامل النظافة (و. د.) موجودًا، وتصلّد على البوّابة طوال اليوم، بكلّ رشاقة، وكان محظوظًا جدًّا لأنّ سيّدة فرنسية من الذين يعملون في مجال الإغاثة في شرق البلاد قدمت في ذلك اليوم، بالتحديد، وأهدته زجاجة عطر من نوع كارون بوفير الغالي، لا لسبب سوى أنّه قال بالفرنسية حين عبرت أمامه: bas Bonabarte، فضحكت عميقًا، وأخرجت العطر من حقيبتها وقدّمته إليه. العامل استخدم العطر بحرفية شديدة، ذلك أنّه غلّفه بالورق المقوّى وركنه في أقصى زاوية من خزانته، مقسمًا ألّا يضع منه أيّ قطرة حتى في يوم زفافه، إن قدّر له أن يزفّ يومًا...

خج لم يفعل أيّ شيء آخر يسيء للنظام الحديدي المتشنّج ضدّ شعبه، لم يخرج في تظاهرة، لم يكن سببًا في إطلاق الرصاص والغاز المسيّل للدموع على الإطلاق، ووضعه بهذه الطريقة على ظهر السيّارة الأمنية، إهانة كبرى لن يستطيع الردّ عليها مع الأسف. اختنق بكلام كثير، كان يودّ إطلاقه ولم يستطع، إمساك كلامي، بواسير كلامية، أيّ شيء آخر فيه خيبة ومرارة. تفاهات شتّى حطّت على ذهنه وطارت، منها أن يطلب من اللعّاق أن يشتري له زجاجة من شراب بزيانوس المرطّب، بطعم الأناناس من أقرب بقالة، ومن غربة الذي يقود السيّارة، أن يتأكّد من مقياس زيت المحرّك، وماء الراديتور، ومن الفتاة الجميلة التي ترتدي فستانًا أحمر وطرحة بيضاء، والتي بصقت حين شاهدت سيّارة الأمن، أن تحبّه. لم يكن خج مثقّفًا، أو واسع الاطّلاع، وإلّا لكان فكّر أيضًا في أن يطلب كتاب «وداعًا للسلاح»، لإرنست هيمنغواي، وكان معلّقًا على واجهة كشك مرّوا من أمامه.

فجأة، تذكّر عشاء الموبايلات، في كافتيريا خلّاق، وفكّر في أنّه قد يكون السبب في ما يحدث. لكن، كيف؟ فالعشاء كان صامتًا، شخصان غارقان في عالم بعيد، وهو لم يتحدّث في أيّ شيء تلك الليلة، (ن. ت.) سيّدة أعمال من نوع منحرف، وليست ناشطة سياسية على حدّ علمه، وعجبنا ثري عجوز، مؤكّد أنّه قريب أو نسيب للسلطة التي تحتكر الفوائد كلّها، حتى يسمح له بالثراء، هذا بدهي.

مرّوا بشارع مظلّل بالأشجار، وتحت الظلال بشر ثائرون ألقوا بالحجارة على السيّارة وهم يصرخون: يسقط الظلم... يسقط الطغاة.

4

1 - مهلّل عيسى.

2 - هبة كسّار.

3 - القعقاع، أو هابش أو نبيل، أو... أسماء عدّة أخرى، ليس من بينها عجبنا.

4 - نادية ترزي – (ن. ت.)، سيّدة أعمال، لها نشاطات اقتصادية متشعّبة.

تلك كانت أهمّ محاور التحقيق المكثّف الذي جرى مع خج، في أحد مقارّ الأمن الوطني المتعدّدة، وكان بعضها في شوارع ضاجّة ومزدحمة، وبعضها في أزقّة ملتوية وقاحلة، بعضها يحوي سجونًا صريحة ومقابر جماعية وأضرحة، وبعضها فيه مقاصل وكراسٍ ملغومة وجبال من الحنق غير المبرّر، ودائمًا ثمّة خسارات، ابتداءً من خسارة ظفر صغير في إصبع صغيرة، إلى خسارة عنق ورأس، وأحلام غالية.

المقرّ الذي اقتيد إليه خج كان نموذجيًّا، واسمه في السجلّات «المقرّ النموذجي للتوبة»، ولا أحد يعرف أيّ توبة يعني ذلك، التوبة من الظلم، أو التوبة إلى الظلم. خج لن يعرف إلّا بعد وقت، وبعد أن يجيب عن الأسئلة، أو يتلقّى الإجابات عنها، لا فرق. كان محاوروه ضبّاطًا كبارًا وصغارًا على حدّ سواء، الكبار لطرح الأسئلة الكبيرة المرعبة، التي قد تصل إلى أسئلة عن الإطاحة بالشرعية، وقلب نظام الحكم، والخروج على الحاكم، والصغار لطرح الأسئلة الصغيرة التافهة مثل: هل ساعتك هذه أصلية أم مقلّدة؟ هل تحبّ النظّارات الشمسية ماركة بوليس؟ أم تفضّل عليها راي بان، وكاريرا؟ هل تعجبك البنت الطويلة أم القصيرة؟

الجدّ مهلّل عيسى طُرح كاسم مجرّد من لقب الجدّ عنوة – لم يتحدّث أحد عن عمره الذي قد يكون تجاوز التسعين، لأنّ سيّدة مسنّة في الحي، ماتت منذ أحد عشر عامًا عن ثلاثة وثمانين، قالت مرّة أنّ مهلّل هذا كان يغازلها أيّام كان الغزل يؤدّى بطرائق بدائية جدًّا، وعنيفة، مثل أن يتشقلب المغازل ويمشي على يديه أمام المرأة التي يعتبرها حسناء، مثل أن يأتي بصديق نحيف له أسنان بارزة، ينطحه بعنف أمامها ويكسر أسنانه، أو يسقط عنوة عن ظهر حمار عنيد، وينهض، ينفض

ثيابه ويمشي منتفخ الصدر، وهناك أيضًا من كان يتجرّأ على شتم الطبيعة الخلّابة، ومن يبدي استياءه من الملابس النظيفة، الزاهية، التي قد ترتديها المحبوبة، بوهم أنّ ذلك من دعائم الرجولة. قالت المعمّرة والجدّ لم ينكر، وأضاف من عنده دلائل أخرى تثبت ادّعاءها. قال: نعم، وكان شعر المرأة يدهن بزيوت السحالي والجرذان، حتى يظلّ ناعمًا.

هناك، في المقرّ النموذجي للتوبة، نزعوا أسطورة البحّار كاملة عن الجدّ. قالوا: كان يقود تظاهرة ضدّ النظام، ابتدأت من مقابر الشهداء القريبة من حي بركة، وانتهت بعد ساعات إلى نقطة البداية. قالوا: خضر جابر – خج كان يسنده بيده، ويوصل صوته إلى الناس حين يضعف بسبب كبر السنّ وبحّة التبغ التي تلازمه منذ شبابه، وكان يقدّم له الماء، وسندوتشات الجبن والفول وسلطة الباذنجان.

خج كان مستغربًا جدًّا، وبدا شبه أبله وعيناه تستمعان قبل أذنيه لما يقال عن الجدّ، وعنه. ربّما يقصدون جَدًّا آخر، اسمه مهلّل مصادفة، وربّما يقصدون شخصًا آخر، ساعد مهلّل الآخر، اسمه مصادفة خضر جابر، ويختصر اسمه إلى خج. مصادفات مثل هذه تحدث، أنتم مخطئون، قال ولم يكن واثقًا في أنّ الصوت خرج من حلقه، لكن جاءه الردّ عنيفًا في شكل قرصة في رقبته، تمامًا في موضع الغدد الليمفاوية التي التهبت مرّة وما زال لمسها يوجع. لم يتحدّثوا عن الترويج للصور المنحرفة، النشاط الوحيد للجدّ مهلّل طوال وجوده في الحي، ما أكّد له أنّهم مخطئون. لكنّه لا يستطيع فعل شيء.

المحور الثاني كان هبة كسّار.

– تعرف هبة كسّار؟

– لا... لم أسمع بها قطّ.

– الفتاة التي مثّلت دور الطبيبة سيلين في مسرحيّة بنات شهرزاد وأحلامهنّ المبعثرة؟

لم يسمع بها، لم يسمع حتى بشهرزاد وبناتها، إنّها بلا شكّ شخصية مخترعة، ابتكروها من أجل إرباكه بلا أيّ سبب، سوى أنّه تعشّى مع ثري عجوز، وسيّدة أعمال من نوع خاصّ، خاض معها بعض لياليها الحميمة. الآن، توجد إرهاصات ثورة على النظام القائم منذ سنوات طويلة، بلا أيّ جديد في ما يخصّ الناس، توجد تظاهرات في الشوارع، توجد صراخات وسباب، واستعداد مطلق للموت في سبيل الخلاص، لكنّ خج ليس مناضلًا حقيقيًّا، ليس مناضلًا على الإطلاق. من المحتمل أن يتحوّل إلى مناضل ذات يوم، أو لا يتحوّل، المهمّ أن تنتهي أزمته الحالية.

– الفتاة التي ترقص رقصة الإسيكستا الحبشية وهي تلبس صندالًا طول كعبه خمسة سنتمترات.

– لم أسمع بها قط.

– التي تغنّي بصوت بارد تظنّه صوت كروان.

الآن فقط عرفها، وكان فعلًا يعرفها لكنّها معرفة بلا أسماء، كلّ ما يعرفه عن أسماء تلك العائلة، أنّ الأب الراحل كان اسمه إدريس، والآن أضيف اسم هبة، وكسّار، الابنة والجدّ:

– أعرفها، ولم أكن أعرف اسمها.

– كيف لا تعرف اسمها؟

– هذا ما حدث، ماذا بها؟

– لا شيء مهمّ، مجرّد ناشطة شيوعية، مبتذلة، تستحقّ الذبح، وأنت كنت ساعدها اليُمنى ذات يوم.

اليُمنى؟ لن يستطيع النفي، فقد رافقها بالفعل في جولات متعدّدة قامت بها خلال أيّام عدّة، لكنّها لم تطرح أيّ شيء له علاقة بالمبادئ، لم تذكر كلمة رأس المال، ولا البروليتاريا، ولا الشعوب، ولا العمّال ولا أيّ كلمة من تلك التي يحبّها الشيوعيون كثيرًا، وبرغم أنّها غنّت أمامه أكثر من سبع مرّات، لكنّها لم تردّد في أيٍّ منها أغنية «حبيبي في المصنع» التي يغنّونها في كلّ نشاط يخصّ العمّال.

– لكنها تحبّ الممثّل برات بيت، وبرات ليس شيوعيًّا.

– هذا للتمويه، أن تعلن حبّها للرأسمالي براد بيت، بينما هي تحبّ الاشتراكي أوليغ تاباكوف.

لا بدّ أنّ من يكتب التقارير لهؤلاء الناس مريض نفسي، إقحام جدّ عجوز في تظاهرة لا يستطيع إشعالها إلّا الشباب، إقحامه هو في نشاطات لم تكن قريبة قطّ من خواصّه كشخص شبه عاطل، غاطس أمام بوّابة، ولا شيء آخر، المجيء بفتاة متبجّحة ترتدي الجينز المقطّع عند الركبتين، وتضع الأكسسوارات المقلّدة، من أقصى درجة في البله إلى أقصى درجة في بَله آخر. يا إلهي!

هبة كسّار ناشطة في حقّ نفسها، وقد تنخرط في تظاهرة، أو اعتصام، يشارك فيه بعض أصدقائها، لكن قطعًا لم تسمع بأوليغ تاباكوف ولا غيره من الروس المندسّين داخل بلاد كبيرة، شحيحة في إظهار الناس للعالم.

– سيّدي، أخي، عمّي، لست أيمن ولا أيسر، لست ذراعًا، أنا حارس بوّابة لم أكمل تعلّمي لأسمع عن أوليغ تاباكوف أو غيره، صدّقني لم أسمع بأيّ شيء، ولو أردتم ألّا أسمع، فلن أسمع.

– بالضبط، لن تسمع ما يضرّ الوطن نهائيًّا، لكن ستسمع ما يفيده فقط، وإن سمعت ما يضرّه، فستخبرنا فورًا.

لم يفكّر خج في هذه الجملة الأخيرة، أجّل التفكير فيها إلى وقت آخر، لأنّها بدت له مقصلة، إمّا أن يقف تحتها أو يتجاوزها ببيع أشياء كثيرة يملكها أهمّها انتماؤه لأهل حي بركة الرائعين، ذلك

الانتماء الذي يحمله مُذ وُلِد وحتى الآن.

أراد أن يسأل سؤالًا يهمّه جدًّا أن يعرف الإجابة عنه، سؤالًا عن عشاء الموبايلات في كافتيريا خلّاق:

– هل عجبنا ونادية ترزي ضالعان في مؤامرة؟

– من عجبنا؟

– الرجل الثري العجوز، الذي يملك مسلخًا أوتوماتيكيًّا قريبًا من غابة النيم.

– تقصد القعقاع؟

– لا أعرف، أسمّيه عجبنا.

كأنّ هناك من ضحك، وبمصادفة بحت ونادرة، كان أحد الحاضرين اسمه عجبنا، وهو الذي ضحك.

– القعقاع، ونادية ترزي وطنيان، لا علاقة لهما بتدمير الوطن... هل تفهم؟

لم يسيئوا إذًا إلى عجبنا ولم يتّهموه بالصراخ في التظاهرات، لم يتحدّثوا أيضًا بسوء عن السيّدة (ن. ت.)، برغم نشاطها الاستفزازي. كان ثمّة تثاؤب عريض حدث تلك اللحظة، المحاورون تثاءبوا والحوار نفسه تثاءب، ومؤكّد كانت ثمّة عودة لجملة: لن تسمع ما يضرّ الوطن، وإن سمعت شيئًا فستخبرنا، إنّها الجملة الأهمّ في تلك الجلسة الطويلة، الأهمّ في حياة خضر جابر – خج، لأنّ التحوّلات لا تخصّ فقط فتاة كانت تدرس في المدرسة الإعدادية ذات يوم وانحرفت، وإنما قد تخصّ أيضًا سائق حافلة لا يعرف سوى طريق واحد، يعبره يوميًّا مغمض العينين، وطيّارًا يصعد ويهبط بالطائرة فقط، وحارس بوّابة في صالة الوصول بالمطار، في الحقيقة، قد تخصّ حتى حمارًا مهزومًا، يرعى في حقل بعيد في قرية بعيدة.

5

يومان ليسا طيّبين ولا يستطيع أن يقرّر حتى الآن إن كانا كئيبين أم لا، أمضاهما خج في القسم النموذجي للتوبة، الخاصّ بجهاز الأمن الوطني. أقرّ بجميع التهم التي ألصقت به، بما في ذلك محاولة تسلّق السور العالي المفخّخ للقصر الجمهوري، ورمي الحراس المتناثرين خلفه بالحصى والطين، وترويع عدد من الآمنين كانوا يجلسون تحت شجرة في الشارع، حين ظهر أمامهم فجأة وفي يده قضيب من معدن، والتجشّوء بصوت عال أمام طالبة في الثانوي مصابة بمرض الرعب، وتركها من دون إسعاف. هو يعرف أنّها تهم بلا أيّ معنى، ولا ضرورة لها أصلًا، وإنّما تلقى هكذا لمحاولة خلق إلفة من نوع بغيض بين جهاز الأمن والشخص الذي رُصِدَ، وتمّت رعاية بياناته جيّدًا، وأصبح في حكم المجنّد لديهم، ودائمًا هم أشخاص بلا تهم، بلا نشاطات تذكر، ولم يمارسوا في حياتهم إلّا أشياء عادية جدًّا، يمارسها حتى الذين في السلطة، مثل الأكل، والاستحمام، والذهاب إلى دورات المياه، مرّة أو مرّتين في اليوم، وممكن أن يلمسوا السياسة لمسًا خفيفًا، في أحاديثهم، من حين لآخر...

ما المشكلة في أن يتحدّث المرء أحيانًا عن المعيشة الغالية، وطوابير الخبز والوقود؟

ما المشكلة في أن يسبّ ويلعن، وأن يخرج لسانه لموكب وزير أو محافظ يمرّ بسرعة مخترقًا مقاطع الجوع المحفورة في كلّ شبر من الشوارع؟ ما المشكلة حتى في أن يتعرّى، ويصرخ، ويقول لرئيس الدولة في لقاء جماهيري مفتعل، بلا مناسبة: ثكلتك أمك، من دون أن يخرج سكّينًا أو مطواة أو سلاحًا ناريًّا، ليحوّل الثكل المعنوي إلى حقيقة؟ هم يدرون وخج يدري. هكذا، وافق على اتّهام الجدّ بالخيانة، والفتاة الجميلة، ابنة موظّف الأراضي الراحل، بالتلف والانحراف، وأنّه هو نفسه مزكوم بالغاز المسيّل للدموع من كثرة ما واجهه في الشوارع، والساحات الممتلئة بأعداء الوطن. وافق وعرف في لحظة موافقته أنّه مُنح الخيار الوحيد الذي يسمح له بالعودة إلى حي بركة مرّة أخرى. صحيح لن تكون عودة ظافرة، لكنّها عودة في أيّ حال من الأحوال.

– كيف أفيد الوطن إذًا؟

– في البداية، لا بدّ من اقتناع تامّ.

هو يعرف وهم يعرفون أكثر منه، أنّ لا اقتناع تامًّا في مسائل قد تؤذي أحدًا، أو تضرّ بمستقبل أحد، ولو دخل قلوبهم الآن لعثر على بقع عدم اقتناع كثيفة، ومتجهّمة، وتحاول بشتّى السبل أن تهزم البقع المقتنعة. كان في حي بركة رجل أمن متقاعد اسمه الناجم، أمضى في تلك الدهاليز أربعين عامًا، وحين تخلّص منها أو تخلّصت منه بعد أن شاخ، جمع من استطاع جمعه من سكان الحي في بيته، قدّم لهم العصير والمياه الغازية، وحلوى كواليتي ستريت، وقال جملة واحدة فقط، أرادها أن تكون معولًا لهدم ماضيه كلّه:

– كنت غير مقتنع بالخدمة في الجهاز.

بالطبع، لم يصدّقه أحد، وشاهدوه مرّات كثيرة يبطش بأهمّ شخصيات حي بركة، من تجّار وحلّاقين، وباعة خضروات، يمسكهم من رقابهم، أو ظهورهم، ويلقي بهم على ظهور السيّارات المكروهة تلك، شاهدوه يُسيء معاملة المرأة، ويلمس النساء في أكثر مكان يكرهن اللمس فيه: الإصبع الكبرى في أقدامهنّ، وأقسم صاحب دكّان استيقظ ذات يوم ووجد نفسه مشلولًا، أنّه حلم بالناجم يطعنه في ظهره، وكانت لعنة كبيرة، أن تصيب في الحقيقة والحلم.

خج خرج من القسم النموذجي للتوبة بعد أن استلم اسمًا حركيًّا، هو خج نفسه الذي لطالما تمنّى أن يستخدم بكثافة، وبطاقة أمنية عليها صورة التُقِطَت بآلة خاصّة مدرّبة على تمويه الوجوه وتحويل صور المجنّدين إلى نكات بذيئة، طافوا به على أقسام شتّى، يضمّها القسم النموذجي، بعضها على سطح الأرض، وبعضها في مجاهل سحيقة تحت الأرض. شاهد هناك أشخاصًا تحت الحراسة، يدخّنون النرجلية التي حشيت بموادّ قلوية، معذّبة للرئة، أشخاصًا حفاة يلعبون كرة قدم في ملعب مفروش بالحصى المسنّن، بشرًا أحياء بلا حياة، وبشرًا أمواتًا بلعنة ما، وانطبعت في ذاكرته صورة امرأة ممزّقة الثياب، تصرخ بمرارة، ويبرك على صدرها رجل قصير، أحدب، عار، بينما كاميرا تدور في المكان، تصوّر المشهد الغريب.

– تصوّرون أفلامًا إباحية؟ سأل وعيناه انطفأتا من حدّة المشهد.

– لا... نكسر العيون فقط.

– كيف تكسرون العيون؟

– لا تتعجّل، ستكسر العيون ذات يوم، هذه كانت قارئة مستقبل وتنبّأت بسقوط النظام لعدد من الناس، ونكسر عينها حتى لا تتنبّأ بأشياء مثل هذه مرّة أخرى.

هو لا يفهم، أو بالكاد فهم، والفتاة توقّف صوتها، لكنّ تنفّسها ما زال ضاجًّا وحزينًا...

– وتلك التي ترتدي زيّ الطالبات، ماذا بها؟

كانت ثمّة فتاة صغيرة، ترتدي زيّ طلّاب المدارس الإعدادية، وتضع نقابًا على وجهها، وفي قدميها صندال برتقالي. كانت واقفة في بهو واسع بلا أيّ حركة، كأنّها غنّت مقاطع طويلة من أغنية مملّة وتعبت، كأنّها شاركت في ماراثون ووصلت إلى النهاية.

– لا شيء، طالبة إعدادية تحبّ وطنها.

– لكنها ساكنة في الفراغ، هل تحبّ الفراغ؟ ما أغرب ذلك؟!

لم يصدّق، في البداية، أنّه شاهد موتى حقيقيين، جلودهم مسلوخة، ووجوههم ليست لها ملامح الوجوه، قالوا هؤلاء ماتوا خونة، وسيظلّون هكذا مشوهّين ومسلوخين ولن يدفنوا في أيّ بقعة طاهرة في الوطن.

خج يعرف وكلّ شخص في كلّ أشبار الدنيا يعرف، أنّ التبريرات التي يسمعها، مجرّد ثرثرة، وضحك، ولعب، واستهتار، وهرجلة، ومفردات قاموس طيّعة لمن يريد تطويعها. لن يعرف كيف ماتوا وكيف سيظلّون هكذا إلى الأبد، وتوقّع أن يهبّوا فجأة من رقادهم، يستعيدون وجوههم ويملأون المكان دمًا.

كانوا قد أوصلوه بإحدى عرباتهم الصغيرة، التي لا تحمل أرقامًا، إلى مشارف حي بركة. ملابسه الرسمية التي ارتداها منذ يومين للذهاب إلى العمل، متّسخة، وتفوح منها رائحة خزي، سراويله الداخلية، غير واثق إن كانت هي سراويله، أم استبدلت بأخرى أثناء نومه المضطرب، لأنّه لا يتذكّر أنّه يملك سراويل داخلية حمراء، ويسخر بشدّة من الذين يملكون مثل تلك السراويل، ويسمّيهم: البنات. لا يدري ما حدث في العمل في المطار، ولا يستطيع أن يخبر رئيسه بأنّه كان في سجون الأمن الوطني، أو أنّه احتجز وجنّد أمنيًّا، في الحالتين ستبدو نظرات رئيسه وغدة، وكريهة الرائحة. إن كان ثائرًا، فلن يدعه يستمرّ في العمل، وإن كان خائنًا للثوّار، فلن يدعه أيضًا، وقد أخبروه في القسم النموذجي بأن يحتفظ بوظيفة حارس البوّابة، ويعمل لديهم من خلالها حتى إشعار آخر، وقد تمنّى ألّا يأتي ذلك الإشعار الآخر أبدًا. سيبتكر سببًا ما أدّى إلى غيابه عند رئيسه، وإن وجد عامل النظافة البديل، مسيطرًا على الوضع، فسيسكت. ما أضرم النار في قلبه حقيقة، وجعل مشيته مترنّحة، ويديه ترتعشان، هو تذكّره أنّه أصبح زميلًا للعّاق وغربة، زميلًا حقيقيًّا، يحمل البطاقة نفسها، والتفاهة نفسها، والوجه المشوّه بكاميرا التشويه نفسه، ومؤكّد سيلحقونه معهما بغرض التدريب... يا إلهي!

في زقاق مهجور من أزقّة الحي، تعمّد أن يسلكه كي لا يلتقي بأحد، خاصّة الذين شاهدوا اعتقال اللعّاق وغربة له، ومؤكّد ينتظرون حكاية ما، أو إجابات عن أسئلة سيطرحونها بلا كلل، شاهد أخته الأرملة، واسمها زكية، وتُسمّى الذكية، ربّما لذكاء تملكه وتستخدمه أحيانًا في مواقف معيّنة، وربّما تقديرًا لدورها الفعّال في إعداد برنامج مقاومة الحزن المتداول في حي بركة

والأحياء المجاورة، وهو برنامج صغير، من سطور عدّة، يتبعه الباكون على فقد، فتتلاشى دموعهم على الفور، وقد صيغت الفقرات لتشمل موت أحد الزوجين، أحد الأبوين، أحد الأبناء، بينما استبعد موت الأجداد والجدّات، والعمّات والخالات، ومن هم في مرتبتهم، لأنّ الحزن في حالة هؤلاء مضيعة للوقت، وإن حدث عند أحد، فعليه تحمّل عواقبه وحده.

كانت الأخت ترتدي عباءة سوداء، وصندالًا بيتيًا أسود باهتًا، وتحاول أن تغطّي جزءًا من فمها بطرحة ليست خضراء تمامًا، لكن تميل إلى الخضرة، لعلمها أنّ الفم جزء حسّاس في الجسم، تنطبع صورته عند الناس بسرعة كبيرة، أكثر من العينين والأنف والركبتين.

زكية أيضًا شاهدت أخاها، وكانت تزور جماعة من الصوفيين يسكنون هناك، وقيل يركبون المعجزة، بشكل يومي، يسافرون إلى مكّة لأداء مناسك العمرة، ويعودون حاملين المسابح وماء زمزم، وعندهم كرامات أخرى كثيرة مثل تحويل لحم الماعز إلى لحم ضأن، والفلفل الأحمر الحرّاق إلى قصب سكّر، وزيت التموين السيّئ الرائحة، الشبيه بزيوت محرّكات السيّارات، إلى زيت عافية النقي، لكنّهم لا يبوحون بتلك الكرامات لأحد. الذكية لم تأت لتحدّق في كراماتهم، أو تطلب معونتهم في البحث عن أخيها الذي احتجزته سلطة غامضة منذ يومين، وإنّما لتلتقط لهم صورًا، تضعها على حائطها في فيس بوك الذي عرفت طريقه حديثًا بعد أن ازدهر بيع المرطّبات في كشكها، وامتلكت هاتفًا جيّدا من ماركة هواوي، وتكتب تحتها: أهل الله ما أجملهم.

وكانت شاهدت صورة لجماعة مشابهة، في جهة ما من العالم، وضعتها صديقة لها على فيس بوك، وكتبت تحتها: أهل الحلّ والربط.

نادى خج أخته، التي تعرّف إليها من مشيتها، وعباءتها الممزّقة في أحد أطرافها، وصندالها البيتي، وأحسّ بها محرجة من ظهوره المفاجئ، فمن المؤكّد أنّها خافت أن يظنّ بها السوء لخروجها من بيت يقيم فيه خمسة رجال، قد يكونون من أهل الله فعلًا، وقد يكونون مجرّد أباليس تافهة من تلك التي يعجّ بها الوطن.

قالت من دون أن يسألها، ومن دون أن تتذكّر أنّه لم يكن موجودًا في اليومين الماضيين، وأمه تبكي في البيت بلا توقّف:

– كنت ألتقط صورًا نادرة للشيخ حلو وحوارييه، سأضعها على صفحتي في فيس بوك. ستأتي بمئة لايك، أنا واثقة.

خج كانت لديه صفحة أيضًا، ويعرف سطوة تلك الصفحات على الناس وأنّها تحوّلهم إلى سحالي وصراصير، وأحيانًا نملًا مجنّحًا، وحتى ديناصورات منقرضة. لم يسألها لماذا أرادت أن تضع صورهم وليس صورته هو أو صور أمها وعيالها، ومشى بجانبها مغمض الحواسّ، لا يريد

أن يشمّ فيها أيّ رائحة من أيّ نوع... هو الآن مدنّس أكثر منها، إن كانت بالفعل مدنّسة، وواقع في مأزق أكثر من الذي قد تكون أوقعت نفسها فيه...

عند الباب، كان بكاء أمه واضحًا، بكاء امرأة في الخمسين والسبعين معًا. تضفر المناحات، واحدة تلو أخرى، تقول يا ولدي، يا كبدي، يا ظلّي، يا مظلّتي، يا كسائي. في تلك اللحظة بالذات، انتبهت الأخت إلى أنّ أخاها كان مفقودًا وعاد، فصرخت: أخي خليل، أين كنت؟ ماذا حدث؟

أخوها كان اسمه خضر، وليس خليل، ومؤكّد ارتباك الأخت أحدث تلك الفجوة الخطيرة في الأخوّة.

عند الظهر، كان خج قد أخبر أهله بنصف الحقيقة الذي كان واثقًا في أنّه نصف ممتاز، قال كنت عند أجهزة الأمن، مشتبهًا به فقط في الأحداث الجارية، وأطلق سراحي بعد التحرّي، لا شيء مقلق، انتهى كلّ شيء.

الأم لن تعرف ما حلّ بابنها حتى تموت، أو تفقد الذاكرة بمرض الألزهايمر، هذا مؤكّد، والأخت قد تعرف يومًا، وقد لا تعرف، لكن سيظلّ ثمّة شكّ يلازمها في الأيّام الأولى، بخصوص اختفاء أخيها وعودته من دون أن يظهر على جسده أيّ طفح في الجلد، ولا حتى مجرّد بثور هامشية، وستحاول أن تستند إلى قصّة، تنسجها وحدها، وتتحدّث عن ظهور امرأة سافلة في حياته، امرأة متزوّجة برجل يسافر كثيرًا، سائق قاطرة أو شاحنة، أو تاجر حبوب متجوّل، ويغشاها خج كلّما سافر زوجها. هي أيضًا ستستغلّ غياب خج، وستلتقط عشرات الصور من الأمام والخلف، والجانب، للشيخ حلو وحوارييه، وسيعجبها أحد الحواريين وستسمح له بالعبث معها إلى أقصى حدّ، لكنّها ستكتشف أنّه ليس كفوًا لإرضاء رغبات أرملة، فتترك التصوير هناك، وتصوّر الطيور والحشرات، واللافتات التجارية المنتشرة في كلّ مكان، وكلّما أحسّت بالجوع العاطفي، انكفأت على وجهها وبكت. ويوجد احتمال أن تنشط مرّة أخرى في لهو مشابه أو مختلف، أو تتحوّل إلى امرأة أخرى، لكنّ ذلك غير مؤكّد.

في موعد مناوبته، بحسب الجدول الذي يعرفه، ارتدى خج زيًّا رسميًّا نظيفًا، ووضع قبّعته على رأسه، وطلب سيّارة أجرة عبر تطبيق «رحلة» في هاتفه، والذي انتشر في البلاد مؤخّرًا، بطريقة انتشار تطبيق أوبر نفسها في العالم. وبالرغم من أنّ سيّارات كثيرة مسجّلة في رحلة، إلّا أنّ الطلب يظلّ محدودًا، بسبب شحّ الموارد، وكثرة الأعباء، وكلّ تلك المنغّصات التي خرج الشعب الآن إلى الشوارع بسببها.

كانت ثمّة تظاهرات في الشوارع كلّها تقريبًا، ثمّة محاولات لتفريقها، ثمّة رصاص حي وغير حي، غاز مسيّل للدموع، واضطراب كبير. ارتعد خج حين تذكّر أنّ أولئك الذين يحاولون قتل الثورة هم زملاؤه، وأنّه عمّا قريب سيصبح قاتلًا للثورة مثلهم. بكى بحرقة، وانتبه سائق سيّارة

الأجرة الشابّ الذي يضع شالًا عليه صورة لمدرّس طيّب استشهد في أحد مراكز الأمن الإقليمية بطريقة وحشية، إلى بكائه، ظنّه أخًا لشهيد من الشهداء الذين سقطوا في الأيّام الماضية، التفت إليه، تأمّل احتقان عينيه برهة وردّد: مثواه الجنّة بإذن الله، لا عليك من كلاب الأمن، سيأتيهم يوم.

وبالرغم من أنّ خج لم يقترف جريمة حتى الآن، إلّا أنّه بوغت بالشعور نفسه الذي بوغت به اللعّاق حين تحدّث الولد فرح عن كلاب الأمن، أحسّ بأنّه مقصود بسباب السائق، وتنحنح ليرى – هل هي نحنحة أم نباح كلب... تنحنح بصوت أعلى، فمدّ سائق سيّارة الأجرة إليه منديلًا ورقيًّا التقطه من صندوق مترب موضوع أعلى المقود.

في المطار، لم يكن هناك أثر لأيّ هرجلة من أيّ نوع، لم يفتقده أيّ مسؤول، لم يكن أحد ينتظر ظهوره ليعنّفه. كانت الأمور تسير بعادية مطلقة، بسبب عامل النظافة (و. د.)، الذي استعان بعامل نظافة آخر من زملائه وأخذ يتبادل معه مناوبة خج طوال يومين. غطّيا البوّابة وسير الأمتعة، ومنصّات شركات الاتصالات، وأنشطة كثيرة متنوّعة وصلت حتى الأسواق الحرّة، حيث تباع سلع قليلة وهزيلة. سلّمه العامل المناوبة وذهب لتنظيف المراحيض، واستلمها خج بلا حماسة، كانت وظيفة ضحلة، لكن لا مجال فيها للبغض والكراهية، سيستمرّ فيها ويناشد رؤساءه في الأمن أن يتركوه هنا... سيحاول ألّا يأتي الإشعار الآخر أبدًا.

فجأة، ظهر في المشهد رجل طويل، له لحية حمراء من أثر صبغها بالحنّاء، كان قد بلغ السبعين أو تجاوزها. كان يمشي بمروءة كبيرة، ويهمس بقدميه للأرض كأنّه يحدّثها وتردّ الحديث، كان يحمل حقيبة صغيرة بنّيّة اللون على كتفه، وأخرى سوداء من تلك التي تحمل فيها الحواسيب في يده اليسرى.

خج يعرف هذا الرجل، وآلاف غيره وربّما ملايين يعرفونه أيضًا، إنّه الممثّل المسرحي القديم أ. ب عازم الذي أمضى فترة في السجن بسبب اعتراضه على مبدأ تغيير دساتير الأرض كلّها، بما فيها دستور بلاده، لإرضاء شخص أو عشيرة، أو حزب موبوء بالجرب، وصور فيديو نشره على الإنترنت لخروف منهك تحوّل فجأة إلى ضبع وأكل نفسه، ما فسّره كثيرون كإشارة منه إلى أنّ النظام يتهاوى ويتأكّل. كان سافر بعد خروجه من السجن إلى دولة مجاورة، وذكر في بثّ حي على فيس بوك، تابعه كثيرون، إنّها دولة طيّبة، تسمح بالإسهال والاستفراغ وتمضية الوقت في الثرثرة، ولعب الداما، والدومينو، ومغازلة النساء، لكنّها ليست وطنه الذي سيعود إليه في أقرب وقت. وها هو يعود اليوم بالفعل، بينما الاضطرابات تحدث والناس محتشدون وغاضبون في كلّ مكان. أيضًا، كانت له مسرحية اسمها «زمن حقير» تعرّف بسببها إلى ثلثي مقارّ الأمن الموجودة في البلاد، وقيل نزعت أظفار قدميه كلّها في إحدى المرّات، لكنّ أحدًا لم يستطع أن يؤكّد ذلك. ويذكر خج أنّ محامية من إحدى العائلات المسيحية ظهرت مرّة في قناة عربية تبثّ من بلد

أوروبّي، ويصل إرسالها إلى البلاد وتحدّثت عن انتهاكات كثيرة تحدث، وذكرت من بينها حالة المسرحي عازم.

فجأة، صاح المسرحي، وكان صوته مهرجانًا يضمّ نكهات شتّى، مؤكّد هي نكهات تلك الشخصيات الشعبية، البسيطة، التي أدّاها على المسرح أكثر من خمسين عامًا: «حرّية سلام وعدالة... حرّية سلام وعدالة».

تلقّف الموجودون في الصالة هتافه، فصاحوا وأيديهم مرفوعة إلى أعلى: «حرّية سلام وعدالة... حرّية سلام وعدالة». حتى النساء صحن، والبنات الصغيرات بدت أصواتهنّ رنّانة، وبطعم الحليب الجيّد: حرّية سلام وعدالة... حرّية سلام وعدالة.

بهت خج. خاف من ترديد الهتاف مع الناس، وكان انتبه إلى وجود اللعّاق بجانبه ومؤكّد سيستخدم هتافه دليلًا على عدم إخلاصه للوطن. كذلك خاف من عدم الهتاف، لأنّ الصالة كلّها تهتف، ومئات العيون الثائرة تنتبه بلا شكّ إلى غير المشاركين. ارتبك، والتفت إلى اليسار، حيث اللعّاق ليرى ردّ فعله، فكانت المفاجأة: اللعّاق يهتف، وبصوت بارز من أعلى الأصوات التي تصيح: حرّية سلام وعدالة. أكثر من ذلك، انتبه إلى وجود أحد الذين شاركوا في التحقيق معه يوم اختطف من حي بركة، وكان في حوالى الخمسين، طويلًا وممتلئًا جدًّا، وله لحية لا تبدو طيّبة، كان اسمه عوض أو عواض، لا يذكر جيدًا، فقط يذكر أنّه الرجل الذي اقترح بقاءه في خدمته السابقة إلى حين إشعار آخر، عوض أو عواض لم يكن يهتف فقط، كان يهتف حاملًا أحد الشباب على ظهره، في فعل لا يشبه وظيفته على الإطلاق. تنحنح خج عند تلك النقطة الحسّاسة من التفاهة، وصرخ بإبداع، بعدما غيّر الهتاف أو طوّره: الثورة خيار الشعب. وردّد الهتّافون خلفه: «الثورة خيار الشعب». حتى الممثّل المسرحي الذي قطعًا تنتظره كتيبة من الأمنيين خارج المطار، ردّد هتاف خج، قبل أن يغادر مدفوعًا في ظهره بشخص ملثّم ظهر فجأة، أخذ صيده بكلّ هدوء، وذهب قبل أن ينتبه أحد. اللعّاق يبدو أنّه ذهب أيضًا، لأنّ رائحة أنفاسه المستوحاة من رئة تستهلك الدخّان بكلّ بشاعة، اختفت فجأة، ورائحة عطر الجوّافة الذي يضعه على جسده، نوعًا من التميّز الغبي، اختفت أيضًا. عواض لم يكن موجودًا، والصبي الذي كان يرفعه على كتفيه أثناء ترديد الهتاف بدا ضعيفًا وواهنًا وهو يقف مستندًا إلى حقيبة سفر من نوع سيلفر السريع العطب، وواحدة صارمة التقاطيع، ترتدي ثوبًا أبيض خابئ، يبدو أنّها أم الشابّ، تمدّ له شطيرة بيض باللحم ويأبى استلامها.

كأنّ خج شاهد خلّاق، صاحب الكافتيريا، يظهر ويختفي في المكان، واستغرب من ظهوره في بيئة محتشدة بالصراخ والأمنيين. لم يكن بالطبع يدري أنّ خلّاق كان هو المسؤول الأوّل عن تلك العملية التي اقتنص فيها الممثّل المسرحي عازم، وكانوا يعرفون بعودته على تلك الرحلة، وينتظرونه بشغف، ويتوقّعون هتافه في الصالة، وسُمّيت عملية قنصه فطام الثعالب. لن يعرف خج

مثل تلك العمليات، في الأقلّ ليس في القريب العاجل، وما لم ينج بنفسه الآن ولا تزال سراويله أصلية، لم تستبدل بسراويل وسخة، قطعًا سيتعرّف إلى فطام الثعالب، وشخير ذئب بعيد، العملية التي قتل فيها عدد من طلّاب المدارس بأبرد دم في التاريخ، وعملية: ألوان شتى، التي اغتصبت فيها محامية مصابة بمرض «بهجت»، وشبه مشلولة، وغير ذلك من السابق واللاحق، والخفيّ، والمدفون في أعماق سحيقة.

كان ثمة وقت طويل متبقٍ على انتهاء مناوبة خج، ومن المفترض، بحسب وظيفته الجديدة، أن يكون دوّن كلّ شيء حصل في الصالة، ليرفعه لرؤسائه في ما بعد، لكنّه لم يدوّن حتى هتافه هو، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون موجودًا الآن في ذاكرته وهو متصلّب في وقفة حارس البوّابة، هو شكل عروس نظيفة لم تكن قادمة من سفر، ولكن كانت موجودة في صالة الوصول، وتهتف بلحن يخصّها وحدها. قيل أنّها مصابة بالهستيريا، والمشي أثناء النوم، وقد أصرّت على تمضية يوم جماهيري أخّاذ في أقرب مكان فيه تظاهر. زوجها كان موجودًا، لكن لا أحد انتبه إليه، ولعلّه اندسّ خلف برميل أو صفيحة أو حقيبة مهملة من تلك التي تتوفّر دائمًا في مطارات البلدان النامية. نظر خج إلى ساعته وأدرك اقتراب موعد انتهاء مناوبته، وكان يحسّ بوجع في ساقه اليمنى وشبه حكّة في الفخذ الأيسر، ويفكّر أفكارًا كثيرة بعضها سوداء، وبعضها سوداء جدًّا.

6

كان خج مبتهجًا بشدّة مساء ذلك اليوم البارد نسبيًّا من شهر يناير، ذلك أنّ أيّامًا كثيرة انقضت ولم يأتِ إلى إدارته في المطار ذلك الإشعار الآخر الذي ينتظره ويخاف أن يأتي يومًا، فيدحرجه من مكان السكينة الذي لا تمارس فيه أيّ ضغائن أو أعمال عدائية ضدّ أحد إلى مكان آخر يضطرّ فيه إلى أن يرتدي وجه القبح الذي يحمله اللعّاق وغربة، وينشط في أذى الناس.

كانت الثورة قد تحوّلت إلى واقع عميق، وثري، لن يستطيع أن ينكره أحد، وأولئك الذي يحاولون إغاظتها، أو ذبحها باللغو، والسلاح، وأدوات الموت كلّها، بدوا كغرباء، وسط عشيرة متماسكة. وفي وقفته المزمنة على بوّابة صالة الوصول، أو مشيه في الشوارع أو ملامسته لصفوف الخبز والمحروقات، وأمام البنوك والصرّافات الخالية من روح المال وأنفاسه، وانتظاره الطويل للحافلات ليعود إلى بيته، كان خج يقرأ الحياة غير الرغدة التي يعيشها هو ويعيشها غيره من الناس، ويزداد قناعة بأنّه لن يتحوّل إلى خنجر أبدًا، وفي الوقت نفسه سيسعى بكلّ ضراوة إلى ألّا يتحوّل إلى ذبيح بواحد من تلك الخناجر المسنونة.

منذ خمسة أيّام، احتفلت أخته الذكية بمرور ثلاثة أعوام على افتتاح كشك مسرّة للمرطّبات، الكائن في موقع حيوي يحتضن محطّة كبرى للباصات ويربط بين ثلاثة شوارع رئيسية. مسرّة هي ابنتها الكبرى من زوج كان كهربائيًّا نشطًا ومات من صعقة سلك عار، وقد سمّت الكشك على اسمها، لأنّ مسرّة كانت أميز عيالها كلّهم، كانت في الحقيقة عمياء، بسبب مرض بيجمنتوزا، الموروث في عائلة الأب، والذي يسبّب العمى في سنّ مبكرة، حين يهاجم شبكية العين، ويمحو وظيفتها. وقد شخّص في حالتها مصادفة وهي طفلة في الرابعة تشكو من صعوبة رؤية الضوء والظلام على حدّ سواء، وتتساءل دائمًا حين يوضع طبق الفول أمامها على العشاء:

– هل هو كباب أم بفتيك؟

الذكية وعيالها الثلاثة نسوا أنّ مسرّة لا ترى، وتعاملوا معها بجدّية كان من الممكن أن تكون مخيّبة للآمال. جعلوها توقد الشموع الثلاث بنفسها، وتطفئها بالنفخ اللاهث، من دون أن يساعدها

أحد بنفس من أنفاسه، بل أكثر من ذلك، جعلوها تساهم في ابتكار كيكة الاحتفال المصنوعة من الدقيق والفانيليا وحبّة البركة، على شكل وجه بشوش، منتفخ الخدّين، مكتوب عليه بالفراولة: ثورة. كانوا يحيطون بالأم الخمسينية العمر، السبعينية المظهر، يطالبونها بالغناء المتطرّف، مشاركة في احتفالهم، والأم لا تعرف أصلًا، كيف يمكن أن يخرج الغناء من الحلق، في مثل هذا العمر الآسن... كانت تقصد عمر السبعين، الذي وصلت إليه مبكّرًا جدًّا، ومن دون أن تمرّ بأعمار أخرى طيّبة، مثل الثانية والخمسين الذي فيه تزهر المرأة في المرّة الثانية أو الثالثة بعنفوان أكثر جودة، والخامسة والخمسين الذي تسعى المرأة فيه إلى استبدال قمصانها القطنية المجعّدة بقمصان حريرية ملساء، والسابعة والخمسين الذي يبدأ فيه احتكاك الغضاريف في الركبتين، لكن يظلّ الرقص، والسفر، وتسلّق سلالم الطائرات، أمرًا ممكنًا، والستين الذي يُسمّى عمر الجدّة الجميلة، وفيه كلّ الجدّات جميلات جدًّا، جدًّا. الجدّة انصاعت أخيرًا للرجاء، لم تغنِّ، لكنّها ردّدت ما يردّده الناس كلهم في تلك الأيّام: حرّية سلام وعدالة.

خج لم يكن حاضرًا من البداية، ولم يشاهد الزينة المعلّقة في سقف الصالة الضيّقة، إلّا حين انفجرت بالونة خضراء فجأة أمام عينيه. بالرغم من انتهاء مناوبته مبكرًا، كان في العمل الآخر، العمل الخفي، الذي لو انكشف في حي بركة لتغيّرت كلّ الحسابات القديمة، ولربّما قذف بالحجارة في حي يعرف عدد الحجارة فيه بالضبط، وربّما شتم، وأيضًا يعرف كلّ أنواع الشتائم المتبادلة فيه.

في البداية، وبعد يومين أو ثلاثة من ذاك اليوم الذي انصاع فيه للضغوط في المقرّ النموذجي للتوبة، وتحوّل إلى شبه جرذ، أراد أن يخبر الجدّ مهلّل. كان جادًّا في ذلك إلى أقصى حدّ، ومشى إلى بيته، الكائن في أحد الأزقّة الملتوية في حي بركة، وكان زقاقًا مميّزًا، نحت فيه فنّان تشكيلي اسمه فيصل، يقيم هناك، جداريات عدّة تمثّل الحياة في الريف والمدن، ونحت منذ أيّام فقط، جدارية مذهلة، سمّاها: تعالوا، وكانت تضمّ فئات المجتمع كلّها، تحمل المشاعل المضيئة. وبالرغم من أنّ صور الجدارية الأخيرة، وصلت إلى كلّ المتصدّين للثورة، والساعين إلى ذبحها، وجاء وفد من الأمنيين، والميليشيات المدافعة عن الظلم، وبعض فتات البشر، وقرأوا الجدارية بتمعّن، لم توجّه أيّ تهمة أو إساءة إلى الفنان على استخدام فرشاته، ولم تُطلَق أيّ عمليّة تحريض ضدّه.

لم يكن خج يعرف إن كان الجدّ سيصمد أمام تلك الزيارة اللعنة، أم إنّ لغته ستنهار فجأة، ويطرده خارج بيته وحياته. كان الباب مفتوحًا، ووجده نائمًا على سرير الحبال المفضّل لديه، في حوش البيت. انتظر أكثر من ثلاث ساعات، عثر فيها على زراعة جافّة في حوض ضيّق، سقاها بخرطوم للماء وجده متيّبسًا هناك، عثر على قطّة جائعة تنبش في الحوش الصخري على أمل العثور على شيء، طردها، دخل مطبخ الجدّ، غسل أواني الطعام المتّسخة في حوض متّسخ، كلّها، غسل الحوض نفسه، ومسح الغبار عن الطاولات والكراسي، وحوافّ النوافذ. وبالرغم من أنّ

الصور القديمة المرصوصة على رفّ واهن من الخشب الأبيض، في إحدى الزوايا، وتمثّل الجدّ في شبابه مع أشياء تافهة جدًّا، مثل صاري سفينة متأكّل، أو علبة سجائر مارلبورو من إنتاج 1927، أو جثّة وطواط، أو طبق محشي مطهوّ بالطريقة الإسبانية، أو عدد من عاهرات الموانئ العتيقات، يحطن به بلا حماسة، كانت مغبرّة وبحاجة إلى تنفيض الغبار عنها إلّا أنّه لم يمسسها، كان يخاف من لمس صور يعتبرها الجدّ مهلّل مزارًا استثنائيًّا شبه يومي، ينبغي أن يظلّ قديمًا ومالحًا دائمًا. كان يقف أمامها زمنًا، يبلّلها بنظراته، ويتجشّأ بغازات لا تخصّ النظر بكلّ تأكيد، وإنّما تنبع من أمعاء عجوز ويائسة. انتظر خج داخل إحدى الغرفتين الضيّقتين، جالسًا على صندوق صلب من الخشب، لا يعرف أحد ما بداخله، جلس في الصالة أيضًا، وعاد إلى حوش البيت والجدّ لا يزال في رقدته، مغطًّى بشخير كبار السنّ. في النهاية، اضطرّ إلى أن يلمسه في قدميه ليوحي له بأنّ حلمًا ناعمًا يعبث به، وحين فتح الجدّ عينيه ورآه، قال:

– لم توقظني أصابعك يا خضر، بل أصابع لونا.

– لونا؟

– نعم، الجنّية التي كان من المفترض أن تنجب ذرّيتي. ولم تنجبها للأسف، جنّية عقيم، أفّ!

– آه، قال خج، والحديث في تلك المسائل سواء كانت عاطفية، أم جسدية أو بلا روح لم يكن جديدًا، فقد اعتاد مهلّل عيسى أن يخوض في تلك الأشياء، لأنّها كما قال يومًا، آخر ما تبقّى له من فحولة البحّار القديم...

الآن، لدى خج رغبة في إفشاء سرّ سخيف، وفي الوقت نفسه ليس لديه أيّ رغبة في الإفشاء، تصارع الضدّان، الرغبة وعدم الرغبة، في ذهنه برهة لتنتصر في النهاية عدم الرغبة، قال وقد عثر على جملة مستهلكة، يبرّر بها وجوده في بيت الجدّ في ساعة قيلولة مقدّسة عند كلّ الناس:

– كنت أمرّ من هنا وكان بابك مفتوحًا، وجدتك نائمًا فنظّفت لك المكان.

– أيّ مكان؟... صرخ الجدّ.

– كلّ شيء ما عدا الصور المغبرّة على الرفّ.

تنهّد الجهد بارتياح وأغمض عينيه مرّة أخرى، كان يرغب في النوم أطول فترة ممكنة قبل أن يموت، لأنّ النوم في القبر أمر صعب للغاية، لا مجال فيه لتنويع وضع الرقاد، كما أخبره عدد من أصدقائه، رحلوا قديمًا أو حديثًا، ويزورونه لإخباره بالمستجدّات هناك، من حين لآخر، في أحلام هو من يستدعيها، وغالبًا يشيّدها بما يريد من توابل قبل أن يحلم بها.

– سامحني يا ولد، سأنام مجدّدًا.

الجملة الأخيرة لم تكن واضحة تمامًا، لأنّه ألقى بها وسط شخير قاس ومنهك.

في يوم هبّة المطار وبعد أن تفرّق المتجمهرون المردّدون لهتاف الممثّل المسرحي، وهتافه هو شخصيًّا، المغاير للهتاف الأوّل، تعلّم خج شيئًا واحدًا، وهو أنّ الشعب إن اغتاظ من نظام حتى لو كان عادلًا ورحيمًا، سيسقطه لا محالة. تساءل في نفسه عن مغزى وظيفته الجديدة، وهل هي وظيفة ضرورية فعلًا؟ لم يكن يعرف، وكان يرى غربة واللعّاق، شرسين ومتغطرسين ومستعدّين لفعل أيّ شيء قبيح. كان قد عرف اسميهما ونسيهما في اللحظة نفسها، لن يناديهما إلّا غربة واللعّاق، إمعانًا في تغييبهما عن وعيه، وإن اضطرّ إلى مناداة أيّ منهما مباشرة، سيصرخ: يا... من دون أن يكمل، أو يردّد: أنت، ولن يضير اللعّاق وغربة أن ينادَيا بأيّ تفاهة. وقد حاول اللعّاق أن يقترب منه كثيرًا، ليس اقتراب الأخوّة أو الصداقة، وإنّما اقتراب الشبهات، كان مشبوهًا قديمًا ومؤكّد يعرفه كثير من الثوّار، وغير الثوّار، وأراد أن يصبح خج مثله لكنّ ذلك لن يحدث.

ساعتذاك، قال خج:

– اسمع... أحبّ العمل متخفّيًا، ساعدني بتركي وحيدًا أرجوك.

– أنا أرأسك، صرخ اللعّاق، وأضاف:

– آمرك بإخلاء موقعك أمام بوّابة صالة الوصول في المطار، ابتداء من صباح الغد وحتى بعد غد مساء، مفهوم؟

ابتسم خج، أو ضحك أو سخر من دون أن يبتسم أو يضحك:

– لكنّ البوّابة لا تتبع لكم سيّدي الرقيب أوّل.

– حارس البوّابة يتبع لنا... هذا يكفي.

اشتبكا في عراك لفظي كثيف، انتقلا به إلى زقاق بعيد عن التظاهرات التي كانت كثيفة ومشتعلة في شوارع متعدّدة، وظهر فيها نجوم جدّدوا في الهتاف، ورفع الشعارات، وظهرت فيها الفتيات الملكات الملقّبات بالكنداكات، كناية عن نسبهنّ للتاريخ الناصع للنساء، وأصبح بالإمكان الحصول على أغنيات ثورية كاملة، ملحّنة بأفضل الألحان، ومغنّاة بأفضل الأصوات، أيضًا الحصول على رفقة طيّبة، وكوب من الشاي بالنعناع، وقالب آيس كريم، وشريك للعمر بمواصفات تخلب الألباب، مواصفات ثائر، وأحيانًا عقد عمل في دولة خارجية، من مندوبي شركات كبرى، موجودين في وسط التظاهر، لا ينصرون الوطن، ولكن يدقّقون في المعنى بحثًا عن الكفاءات. استمرّ العراك بين خج واللعّاق نصف ساعة، قبيحًا قالا فيه كلّ شيء عن أيّ شيء، وأصرّ اللعّاق على أن يسمح له خج بأن يشتم حي بركة، بأسوأ عبارة في القاموس اللفظي للمواطن العربي، وفي النهاية سمح له خج بذلك مع الأسف، ليس خوفًا منه، ولا تقليلًا من شأن الحي الذي نشأ فيه ويحبّه، ولكن لأنّه تعب من العراك مع رجل شوارعي، يتعطّر بماء الجوّافة، وأراد التقاط أنفاسه.

مؤكّد كان خج مستاء في الأيّام التي أعقبت هبوط معنوياته، وذهب مرّة إلى المقرّ النموذجي للتوبة، شيء في عقله حرّضه على التوبة فجأة، التوبة من الطين الذي خاض فيه حتى الآن بحذر وسيأتي اليوم الذي يخوض فيه مرغمًا بتكبّر وغطرسة.

كان يريد أن يرى اللواء (ب. ب.) ضرغام، أحد القادة المهمّين، والمتشدّدين دينيًّا كما يسمع، وقيل كان موظّفًا في وزارة التجارة، مسؤولًا عن رخص الشركات العاملة في مجال الذهب واللحوم، والطاقة الحيوية، وعيّنوه مديرًا للقسم النموذجي المهمّ، لأنّه متقشّف جدًّا في ما يخصّ الشفقة، ليس شفوقًا أبدًا، ولا يملك دموعًا تتكوّن في المحاجر وتجري على الخدود كالآخرين، ويحيل حتى قرصة النملة، وطعنة المسمار الصدئ في الرجل، وشهقات الزغطة بعد عشاء هستيري دسم، إلى فقه الابتلاء والشدائد. وقد أخبره غربة بأنّ (ب. ب.) ضرغام، يسمح بالجدال أحيانًا، ويمكن أن يجادله، مع ملاحظة أنّ المجادلين ينهزمون أمامه دائمًا، إن كانوا مخطئين، تركهم، وإن كان هو مخطئًا، استخدم يديه في خنق من كان يجادله... فقط قال له غربة: كبّر وهلّل واستخدم شفتيك بلا صوت، بين كلّ جملة وأخرى. أضاف:

– إن راودتك الرغبة في الغناء فجأة، فغنِّ:«نفسي ونفسي كيف تسرفين؟ والموت شاخص على الجبين»

هذه أغنيته المفضّلة، التي يسعى الآن إلى الحصول على موافقة التربويين لضمّها إلى المقرّر الدراسي للطلّاب.

كان غربة متعاونًا إلى أقصى حدّ، ردّد أمامه الأغنية كاملة، حتى حفظ كلماتها ولحّنها وتذكّر أنّها من أغنيات الهوس المعشّش في البلاد، والتي كان الثوّار يقسمون أنّ يمحوا آثاره إلى الأبد.

(ب. ب.) لم يستقبل خج، لم يرد استقباله في الحقيقة، وأرسل مع المجنّد الذي ذهب إلى مكتبه ليخبره بوجود واحد من المجنّدين، اسمه خضر جابر، ويختصر إلى خج، يريد أن يستفسر عن بنود التوبة، رسالة غاية في العنف، قال فيها: إن أردت الاستفسار عن الخطيئة، والردّة مرّة أخرى، أسكنتك المقابر.

الخطيئة؟

الردّة؟

إذًا، الأمر هكذا.

لم يكن خج يرغب في سكنى المقابر بكلّ تأكيد، كان يرغب في حياة طيّبة، يحبّ فيها، يغازل فيها، ينام ويحلم، في الأقلّ في هذه المرحلة من عمره، وإن حدث أيّ تقدّم مذهل للوطن، يريد أن يحضر ذلك...

الذي حدث أنّ غربة لقّن خج كلّ تلك المتاهات، وذهب مباشرة إلى اللواء (ب. ب.)، ليخبره بما حدث، ويضيف لعنات في حقّ اللواء، لم تكن دارت في حديثه مع خج، كتب ذلك في تقرير مفصّل لا يقدر على كتابته إلّا النخبة. كان غربة بالفعل أمنيًّا مخضرمًا، ونخبويًّا ومن الذين لن تمسّهم النار أبدًا في نظر اللواء (ب. ب.)، الذي ردّد ذلك اليقين مرارًا، وأمام عدد كبير من مرؤسيه، وهو يضع يده على كتف غربة. قال:

– ليس يقيني أيّها الأحباب، ولكن يقين الورع الذي يملكه هذا الفتى المخلص.

عاد خج إلى نقطة البدء إذًا، مجنّدًا تافهًا إمّا أن يبتدئ التفاهة العميقة، أو يموت بواحد من أسلحة ضرغام. تنفّس مرارًا، وكان لديه عسر في التنفّس.

7

جلس خج في غرفته، يدير حوارًا متأفّفًا مع نفسه، آملًا أن يحصل على نتائج مرضية.

كانت غرفته واحدة من ثلاث غرف، في بيت نموذجي، يمكن اتّخاذه مقياسًا لأكثر من ثلثي بيوت الوطن. لا بدّ من وجود صالة ضيّقة أو فسيحة، فيها كثير من الأغراض التي لا يفهم أحد أصلًا لما هي موجودة هناك، مثل الأطباق والملاعق الذهبية التي لا تستخدم حتى يموت أهل البيت كلّهم، مثل هوائي مكسور، ومسبحة مقطوعة الخيط، ومفاتيح من مختلف الأحجام، مشبوكة في سلسلة، ولا تخصّ أيّ باب في البيت كلّه، ونسخة ممزّقة من كتاب المطالعة للصفّ الأوّل الابتدائي، في بيت لا يسكنه طالب في الصفّ الأوّل الابتدائي. لا بدّ من وجود عيوب في السقف، يتسلّل خلالها ماء المطر لاهثًا وضارًّا، وثقوب في النوافذ، يدخل منها الغبار المستوطن في تلك البيئة، ولا يبرحها حتى في الخريف، والمطر مدلوق وعاصف، لا بدّ من حوش فيه أزيار فخّارية غالبًا جافّة، وأسرّة منسوجة بالحبال المرتخية، وبعض النسمات التي قد تفرّ من جوّ بديع، في مكان بعيد وتأتي، لا بدّ من وجود جيران، تصل إفرازات أصواتهم حتى في اللقاءات الحميمة، وبالطبع لا بدّ من قطط سطحية جدًّا، تتناسل وتصرخ، وتجوع، وتعطش، وتتوحّش، وفي أقصى درجات وداعتها، تقترب من طفل رضيع، تخدش وجهه وتفرّ.

لم تكن الغرفة مؤسّسة بطريقة تلائم الكدّ والكفاح والوقفة المتصلّبة كثيرًا أمام بوّابة حسّاسة. مجرّد سرير عادي، من الحديد، مفروش بعادية شديدة وخزانة صغيرة من الخشب، فيها ملابس، وصور وتذكارات، وربّما علبة طحينة من ماركة سعد، مخبّأة هناك للحظات الجوع المباغتة، أو زجاجة عطر شبه فارغة، غالبًا من نوع شادو النفّاذ، أو عطر سيجار الذي ظهر في الأسواق في العام 1996، ولم يختف منذ ذلك التاريخ قطّ، لدرجة أنّ كثيرًا من العاملين في تجارة العطور، يضعون صورته على واجهات محالّهم، ومعها عبارة: تخلّص من هذا الإسفاف لو سمحت، لكنّ لا أحد يتخلّص منه، وتزداد تجارته توهّجًا. وفي قاع الخزانة، في الرفّ السفلي، مؤكّد لن يكون ثمّة شيء، لأنّ لا شيء تبقّى يمكن أن يوضع هناك.

لم يكن خج متعجّلًا لإنهاء الحوار مع نفسه، وكان في عطلته الأسبوعية من حراسة البوّابة، ومتمرّدًا على الوظيفة الأخرى، الوظيفة الحمقاء التي لا تشبهه ظاهريًّا، ولا يودّ في أعماق نفسه أن يبحث عن شبه بينها وبينه. لم يذهب إلى المستشفى العام كما أمروه، ليخرج بطاقته الأمنية أمام خفير البوّابة الرئيسية المتسلّط الذي يسمّي نفسه مستر ابن عوف، ويشتمه، وينتقي ثلاث أو أربع نساء، يفضّل أن يكنّ حوامل أو مرضعات، يدخلهنّ من البوّابة عنوة ويعود، أو يخبط باب بيت مكتوب على حائطه واحد من شعارات الثورة البرّاقة، ويطالب أهل البيت بدهن الحائط فورًا أو الاستعداد للرحيل إلى جهة غير معلومة، أو يندسّ في تلك التظاهرة الهادرة – التي انطلقت مبكرًا من سوق الحطب الشعبية، حيث تباع مستلزمات الحياة الزوجية للمرأة، ابتداء من النصائح العادية وأذكار الصباح والمساء وخشب الطلح إلى كتاب الطبخ الأميركي الشهير سيّد الموائد في نسخته المزوّرة، ومضت شيّقة، ومليئة بالتجّار والموظّفين ونساء البيوت الباحثات عن رؤى وحكايات، قبل أن ينضمّ إليها في منتصف الطريق إلى السوق الكبيرة، بالضبط عند إشارات شارع القصر المعطّلة، آلاف من طلّاب المدارس، خرجوا زهدًا في الحصص الأخيرة المملّة، التي غالبًا ما تكون موادّ التاريخ والجغرافيا، أو تكملة لقصص فيها عظات لم يعد الطلّاب يهتمّون بها.

قيل لخج، ومؤكّد قيل لآخرين غيره من أصحاب الوجوه الضارّة، أن ينحشر في تلك التظاهرة، يقترب قدر الإمكان من أماكن الحماسة الجيّاشة فيها، يلتقط صورًا تذكارية مع العرق والتشنّجات، يرصد طبقات الصوت مهما علت أو انخفضت، يرصد الملامح الجمالية للكنداكات، وأماكن الضعف في حماستهنّ – في حال قرّر المسؤولون القضاء على الحماسة. قيل له أن يساهم بإطار محروق، يعيق به الفوران، وقنبلة للغاز، يتأكّد أنّها ستصيب حماسيًّا، لا سيّما في عينه قبل أن يلقيها. قيل له: أفرغ إطارات السيّارات المتوقّفة على جانبي الشوارع، واكتب في التقرير: أفرغها المندسّون القادمون من الكاميرون وساحل العاج وبريتوريا العنصرية، وكلّ تلك الدول الشاحبة التي تفرّخ المندسّين، وارقد في أيّ سيارة إسعاف يصادف أن تمرّ أمامك، ومُرْ سائقها أن ينطلق، ويتوقّف عند أقرب ترس، واصرخ من الداخل: آه... آه، النجدة. قيل له مت مدّة دقيقتين إن استطعت، ليكتب زملاؤك في التقارير التي ستنشر في ما بعد مدعّمة بصورة جثّة كئيبة: مات مواطن مصاب بذبحة صدرية، أثناء نقله إلى المستشفى بسيّارة إسعاف، بسبب إغلاق الشوارع بواسطة أعداء الوطن...

خج لم يفعل أيّ شيء من ذلك، ولا نوى أصلًا أن يفعله، وأعدّ تقريرًا آخر، ألّفه بسرعة، ويتحدّث عن حالته الصحّية، سيسلّمه لإدارة الأمن غدًا صباحًا، قبل أن يذهب إلى مناوبة المطار التي تبدأ عادة في الثانية عشرة ظهرًا، تقريرًا يقول: رقدت بالحمّى يومًا كاملًا، ولم أستطع الوقوف على قدمي، كانت حالتي مستعصية.

أعجبته كلمة مستعصية جدًّا، كرّرها مرّات: نعم، مستعصية... مستعصية.

دعم التقرير بصور «سلفي» لكمّادات من الثلج، ملفوفة في خرقة على رأسه، وكوب يحوي عصير ليمون، وإصبع فيكس يستخدم كثيرًا لفتح الأنف المغلق بالمايكروبات. وردم على جسده كلّ أغطية البيت التي عثر عليها، ليوحي بنزاهة الحمّى التي كانت تؤدّي واجبها على أكمل وجه. كان كلّف أخته الذكية لأخذ هذه الصورة الأخيرة، مدّعيًا أنّه سيضعها على حائطه في فيس بوك، نوعًا من المزاح... والذكية رحّبت لأنّها مغرمة بذلك النشاط الهستيري.

بالأمس فقط، أخبرته الذكية، وصوتها مخنوق في قاع حلقها، ومن عينيها تطلّ دمعتان اثنتان، بأنّ كشك المرطّبات أُغلق فجأة بواسطة شخص منحرف، قال أنّه من الأمن الوطني.

منحرف... الأمن الوطني؟

في البداية، ارتعد، لكنّه عاد، ولاك جملتها، فوجدها عادية ومثالية، لا تدعو إلى الاستغراب أبدًا، منحرف من الأمن، هذا هو الأمر الطبيعي، هو من الأمن، لكن لا يعدّ نفسه منحرفًا، سيقول إحقاقًا للحقّ، أنّه مشروع منحرف إن لم يسبق التحوّل ويلغيه.

كان واقفًا وسط الصالة، يقلّب القنوات التلفزيونية، بريموت بلا غطاء، فأطفال تلك البيوت شغوفون في العادة بالبحث عن كلّ ما هو مغطًّى وتعريته، يعرّون أجهزة الريموت، والنوافذ ذات الستائر المسدلة، والمقاعد المستورة بملاءات ملوّنة لمنع الغبار من تلويث قماشها الأصلي، يعرّون الشجر من الصفق، إن وجد في البيوت شجر فيه صفق، ويمكن أن يعرّوا أسلاك الهواتف، والكهرباء إن أفلتتهم الرقابة، وفي حالات متكرّرة، قد يعرّون الجدّات من الهدوء والوقار.

جلس خج على أقرب مقعد حين صافحت أذنيه عبارة الأمني المنحرف، ووضع الريموت على الطاولة أمامه وواجه أخته، وكانت القناة التي اختارها عشوائيًّا هي قناة فتافيت التي لم تكن يومًا جادّة قطّ، حتى وهي تنقل مضطرّة أخبار الفيضانات والزلازل، والمقت السلطوي تجاه الثورات.

– ماذا حدث بالضبط؟... انطقي.

كان مستاء بشدّة، ولعبت في ذهنه في ثانية خيالات كثيرة مزعجة، منها باب بيت في زقاق ضيّق مكتوب عليه ادخلوا بسلام، ولا يريد أن يسمح لتلك الخيالات باللعب أكثر من ذلك...

– تحرّش بي، طلب أن أرافقه إلى بيته، ورفضت أن أستجيب، فأغلق الكشك وأخذ مفاتيحه، وألقى إليّ بورقة عليها رقم هاتفه، قال: كلّميني، إن أردت إعادة فتحه. هذا ما حدث.

نظر خج إلى أخته، نظر إليها بتمعّن، وتمنّى من أعماق قلبه لو تحذو حذو الأم، وتتقدّم في السنّ فجأة، فتبلغ الخمسين أو الخامسة والأربعين في أقلّ تقدير. كانت في الحادية والثلاثين، جميلة، وليّنة، ورشيقة، ومواكبة للأحداث الجمالية في العالم بالرغم من كونها أرملة، وكم من مرّة انتبه إلى أنّ شعرها تحوّل من أسود إلى بنّي، ومن بنّي إلى أسود، ومن أسود إلى بنّي مرّة أخرى!

كم مرّة انتبه إلى أنّ ثمّة رموشًا كثيفة نبتت في جفونها فجأة، واختفت بعد يوم أو يومين! كم لاحظ أنّ حاجبيها مشدودين وكثيفين، وأنّ على أظفارها عددًا لا يحصى من ألوان الطيف، وغير الطيف! لا يعرف إن كانت أخته هكذا عادية، وإن كانت تتصرّف بما ينبغي أن تتصرّف به المرأة العادية، أم إنّ هناك خللًا في تشبّثها بالحياة، وكان لديها زوج صعقته الكهرباء ومات. لقد اخترعت نظرية مقاومة الحزن، استخدمت مفرداتها في عدم البكاء على الزوج الكهربائي، وكان حقًّا من حقوقها، أن تستمتع بنتائج نظرية هي من اخترعها. لقد رآها بعينيه خارجة من بيت يسكنه واحد اسمه الشيخ حلو مع عدد من حوارييه، وقالت: من أجل صور لصفحتي الاجتماعية في فيس بوك، لا أكثر من ذلك، ولم يدقّق خج يومذاك في قولها، خاصّة أنّه كان قادمًا من جهة الخزي تلك، متخبّط المشاعر، وسخيفًا، ولو دقّق لعثر بالتأكيد على ذلك الحواري الناعم الذي اصطفته من دون الآخرين، وسمحت له بالعبث معها إلى أقصى درجة، وتركته حين اكتشفت عيوبًا فيزيائية في احتفائه بالنشوة. كان في الواقع بلا نشوة يمنحها أو ينالها.

أوقف تهافت الأفكار على ذهنه، وسألها بخشونة لم تكن معتادة منه: «أين الرقم؟».

أخرجت الورقة التي عليها الرقم من حقيبة صغيرة بيضاء اعتادت حملها دائمًا في كلّ مشاويرها، وقدّمتها لخج، الذي ألقى نظرة على الرقم، فتوعّك لونه. كان من الأرقام المألوفة لديه، تلك التي يستخدمها باستمرار. استردّ عافية لونه بسرعة، أخرج هاتفه نصف الذكي من جيبه، أدار الرقم، فأتاه صوت اللعّاق باردًا، وسخيفًا من مكان فيه لغو كما هو واضح من الصراخ، والضحك، والآهات الملوّنة. لم يقل أهلًا يا... لم يقل: أنت... قال بكلّ هدوء:

– أغلقت مرطّبات مسرّة، صحيح؟

ردّ اللعّاق بالصوت السخيف البارد نفسه:

– وماذا يعنيك أنت؟ اهتمّ بشؤونك وأنجز عملك.

– هذه شؤوني يا... لأنّ تلك التي تحرّشت بها، وأغلقت كشكها، هي أختي.

لا يعرف خج إن كان اللعّاق أحسّ بالعار أم لا؟ أحسّ بدنوّ أجله أم لا؟ قام أم قعد، أم نتف شعر إبطيه؟ كلّ الذي وصله عبر الهاتف كلمة: طيّب. وهي كلمة لها أكثر من عشرين مغزًى، وتستخدم بكلّ وقاحة حتى في رصد الذنوب. كان خج يرتدي ثوبًا بيتيًّا، فلم يغيّره، اصطحب أخته بسيّارة من سيّارات تطبيق رحلة إلى مكان الكشك، وكان مفتوحًا، وابتدأ يعمل في ترطيب الحلوق الجافّة. قال العمّال، الذين كانوا يجلسون أمام الكشك، في انتظار أيّ جديد، إن رجل الأمس الذي يتعطّر بالجوافة، عاد ومعه المفاتيح وسلّمهم إيّاها.

أمسك بالصور التي أخرجها من الخزانة، كانت قليلة نسبيًّا، وفي ألبوم قديم ممزّق الحوافّ وفيه جيوب كثيرة خالية، كانت في الغالب تحوي صورًا ذات يوم، لكنّها فقدت لسبب أو لآخر. كان

أبوه موجودًا داخل الألبوم، بملابس البيت المجعّدة مرّة، وبملابس نظيفة وملساء إلى حدّ ما، مرّات أخرى. أمه موجودة أيّام كانت في الثلاثين، والخمسين معًا، وجارتهم التي لا يذكر اسمها الآن لأنّها تركت حي بركة منذ زمن طويل، تحمل سلّة من القصب، وتبدو منتعشة وباسمة، بينما يبدو ظلّ حمار أو كلب، قريبًا منها، لم يكن الأمر واضحًا.

في جيب منعزل، في صفحة خالية من أيّ إزعاج أو ثرثرة فوتوغرافية، عثر على صورة مقصوصة من مجلّة، ومعالجة بالصمغ، لتلصق على الألبوم. كانت صورة «وسن»، الممثّلة العربية التي كان يراها في تلك الأيّام البعيدة من العمر البعيد، ينابيع سلوى متدفّقة، بالرغم من صغر عينيها، والسمعة السيّئة عن إحساسها بالآخرين، التي كان يتناقلها الناس. ترك صفحة الممثّلة، بلا شغف من أيّ نوع، فتح صفحة أخرى، فيها صورة قاسية، لم يرها منذ خمسة أعوام، بسبب إحساسه بالرعب كلّما أوشك على فتحها، كانت التقطت في رحلة مدرسية إلى مزرعة في الضواحي، وتضمّ سبعة عشر صديقًا بعضهم مقرّب من بعض، هو بينهم، ومات أكثر من نصفهم في سنوات متعاقبة، والذين بقوا أحياء إمّا مصابون بالذهان أو التوتّر العصبي، أو طيّبون إلى أقصى حدّ، ويمكن أن يموتوا في أيّ لحظة بسبب مرض لعين لا يحبّ الطيّبين. ارتعد قليلًا لكنّه تأمّل الصورة جيّدًا، تأمّلها بإحساس رجل أمن ملعون وليس ملعونًا في الوقت نفسه، موظّف هناك، وهنا، في الجمر وفي الماء الذي يطفئ الجمر. رفيق غربة، واللعّاق، وسبيل والمنعم، و(ب. ب.) ضرغام، وغيرهم، ورفاق آخرون يهتفون: حرّية سلام وعدالة.

شعّال الذي يرتدي القميص الأصفر، والسروال القصير الأزرق، كان بطل جمباز متمكّنًا من القفز والتعلّق بالحبال القاسية، والمرور سريعًا عبر الأبواب المواربة، وزرائب الماشية، وسرقة دجاجة أو ديك، أو حمل رضيع قد يكون موجودًا في أيّ مكان، ومات بالسمنة المفرطة في ما بعد. هذا لطفي وكان مشروع وغد عنيف، لربّما كان لاءم أجواء اللعّاق وغربة، واللواء (ب. ب.) ضرغام في القسم النموذجي للتوبة، لكنّه مات مبكرًا وبسبب تافه جدًّا، لا يذكره خج، فقط يذكر أنّ الجميع في ذلك الوقت ردّدوا: ما هذا السبب التافه الذي قتل لطفي؟ معقول يموت بهذا السبب؟!...

تأمّل الصورة أكثر وحين وصل إلى وجهه شخصيًّا، الذي كان شبه مستطيل في ذلك الوقت وتعدّل إلى بيضاوي بعد ذلك، شتمه، بصق عليه، تفّه من شأنه، قال: وجه قرد، ونهق بصوت عال ليؤكّد ذلك، ومع الأسف لم يكن النهيق هو صوت القردة المعتمد.

ألقى بألبوم الصور على الأرض، التقطه، حشره في مكانه من الخزانة المفتوحة، تناول علبة الحلوى الطحنية، فتحها، أدخل إصبعه في الكتلة شبه المتحجّرة، كحت قطعة صغيرة، وضعها في فمه، ولم يتذوّق لها أيّ حلاوة.

بالأمس أيضًا، ذهب إلى بيت الجدّ مهلّل، وأيضًا بنيّة إخباره بما جرى في القسم النموذجي للتوبة، وما قاله اللواء (ب. ب) بعد ذلك، وكان الجدّ مستيقظًا هذه المرّة، جالسًا على كرسيّ منخفض في صالة بيته، يعمل بجدّ في تقليم أظفار قدميه، بقلّامة أظفار لم تبد مألوفة لخج. كانت كبيرة بعض الشيء وتشبه حشرة خضراء لامعة. الشيء الذي أزعج خج في الأمر هو أنّ باب الجدّ كان مفتوحًا دائمًا في الأيّام الأخيرة، وفي كلّ مرّة يفكّر أن يسأله عن السبب ثمّ ينسى، الشيء الآخر الذي أزعجه أيضًا هو إصراره الشخصي على إخبار الجدّ بحالة الخزي التي تملّكته، من دون أن يفكّر في إخبار شخص آخر، رغم أنّ لديه أمًّا كبيرة وناضجة، ومنهارة، يمكن أن تأتي بردّ فعل مناسب، مثل البكاء والهستيريا، وأختًا لا بأس بها إذا ما قورنت بأخوات الآخرين، برغم ما تحدثه الزينة الكثيرة التي تستخدمها من أثر سلبي في نفسه... كذلك كان له أخ اسمه صيّاد، ولد من أم أخرى غير أمه، ويعيش منذ أكثر من عشر سنوات في بلد أوروبّي لم يفصح عن اسمه قطّ في تلك الرسائل الإلكترونية التي يتبادلها معه ومع الذكية، مرّة كلّ عامين. كان بالإمكان الكتابة إليه تحت بند الطوارئ، وسؤاله عن إمكانية اللجوء إلى البلد الذي يعيش فيه، وإن كان فيه أشخاص يشبهون غربة واللعّاق أم لا؟ فكّر خج في ذلك وفكّر في حيل أخرى، مثل أن يلجأ إلى السيّدة (ن. ت.) في بيتها الكائن في حي الزهور، ليسألها التوسّط لدى شاغلي الوظائف العليا الذين قطعًا تعرفهم، من أجل أن يعيدوه خضر جابر مرّة أخرى، لا يريد أن يركب اللاند كروزر المرقّعة بألوان عدائية، التي تتعرّض باستمرار للبصاق والحجارة، لا يريد مطاردة الثوّار بوصفهم خونة، لا يريد أن ينبح حين يصرخ ثائر في وسط النشاط المتخبّط لرجال الأمن: كلاب... كلاب.

– وهذه المرّة، كنت تمرّ أيضًا قرب بيتي وشاهدت بابي مفتوحًا؟ سأل الجدّ، وقد انغرست قلّامة الأظفار في اللحم كما بدا، إذ ظهر دم خفيف أسود اللون في الإصبع الكبيرة للقدم اليسرى.

– لا... كنت متعمّدًا زيارتك جدّي مهلّل، أريد أن أخبرك بشيء.

– مثل ماذا؟ شيء في التاريخ؟ في الجغرافيا؟ في علم البحار؟ في الأحداث السياسية الجارية؟

الجدّ هكذا في بعض الأحيان، يتنصّل من دوافع الآخرين بسهولة شديدة، السهولة نفسها التي قد يتخلّص بها من بلغم في الصدر، أو شرود ذهني مباغت.

– أردت إخبارك بشيء يخصّني.

– ما دام يخصّك، لماذا تخبرني به؟ آمل أنّك لم تجرّ الممنوعات لتلك البدينة التافهة مرّة أخرى.

نهض من مقعده، مضى إلى حوش البيت، استلقى على سرير الحبال، ونام فورًا، كأنّ النوم كان محجوزًا في طبقة رقيقة من طبقات رأسه وأفلتته فجأة، أو كأنّ خج تحدّث بعقار الديازبام المخدّر، وليس بحروف أبجدية عادية.

كانت فرصة حقيقية لخج أن يؤجّل لهفته لإخبار الجدّ مرّة ثانية. وبالخطوات السابقة نفسها، سقى الزرع اليابس في الحوض الضيّق، غسل الأطباق المتّسخة وحوض الغسيل المتّسخ، نفض الغبار عن المقاعد والطاولات، وترك الصور المالحة بكلّ ما فيها من قرف في مكانها، وعند خروجه، صادفته القطّة الجائعة، وفرّت قبل أن يرفع صوته أو يده في وجهها.

كان ثمّة مجهولون قد لعبوا بجداريات فيصل، كما يبدو، خاصّة الأخيرة منها، حيث عثر وهو يتأمّلها في طريقه إلى البيت على تفاصيل لم تكن موجودة فيها من قبل، مثل: وجه خروف مشقوق الأنف، وجنرال مكتّف بالنياشين، يرقص في مقبرة، وسمّاعة طبّية على كومة من الزبالة، وعبارة: تسقط... تسقط دولة العار، وعبارة خيار الشعب، مع ملاحظة صغيرة بخطّ جميل أسفل الجدارية: لمن يهمّهم الأمر، هذه التعديلات لم يحدثها الأستاذ فيصل.

كان متيبّسًا في جلسته في المنزل، والغرفة خافتة الإضاءة، توحي بالكآبة، يسمع صوت أمه تحادث جارة ربّما، يسمع أصوات أطفال هم بالتأكيد أطفال أخته، ويتصنّت ليميّز صوت مشي متخبّط قريب من بابه، إنّها مسرّة العمياء بلا شكّ، تعبر المسافة بين غرفة أمها والمطبخ في رياضتها اليومية المعروفة.

نهض خج، في الحقيقة، نهض وجلس مرّة أخرى، لم يكن يحسّ بشيء خاصّ يمنعه من القيام، أو إطالة الجلوس، وكانت مصادفة غريبة أن تسقط عيّنه على صورة وقعت على الأرض كما يبدو، حين أعاد الصور إلى مكانها في الخزانة، كانت صورة جميلة فعلًا، ملتقطة في حديقة، أو شارع منسّق في حي منسّق، صورة هبة كسّار، التي لم يكن يعرف اسمها حين حصل على صورتها التي سقطت من حقيبتها من دون أن تنتبه، أيّام تسكّعها معه، وأخفاها بلا أيّ دافع سوى الاحتفاظ بصورة فتاة، وعرف الاسم في اليوم الذي أجبر فيه على الخوض في الطين، كان ردّ الفعل المفترض في مثل هذه الحالات هو ألّا يهتمّ وأن يعيد الصورة إلى الخزانة، أو يمزّقها، لكنّ الذي حدث كان غريبًا فعلًا، تسارعت دقّات قلبه، وتمنّى لو عثر على الفتاة مجدّدًا، هذه هي الشخص الذي يمكن أن يبثّه أسراره، ليس بسبب شيء، فقط إكرامًا لذلك الخفقان الذي حدث حين شاهد صورتها.

8

لم يكن خج يعرف رقم هاتف هبة كسّار بالطبع، والفتاة التي لا تمنح اسمها لا تمنح رقم هاتفها، هذا منطقي... سيعتمد على نشاطها إذًا، ويبحث عنها في تظاهرة الغد والأيّام التالية. فالتظاهر بات الآن صيغة كبرى من صيغ الحياة في البلاد، وهو من الذين يفترض بهم كسر تلك الصيغة بأكبر قدر من العنف، ولم يستطع حتى الآن أن يفعل. ولا يدري لماذا خطرت على باله كافتيريا خلّاق فجأة، المكان الذي دخله آخر مرّة يوم عشاء الموبايلات رفقة (ن. ت.) والعجوز عجبنا، وسمع منذ أيّام أنّهم أغلقوه يومين أعادوا خلالهما طلاء واجهته، وجدرانه الداخلية بلون رصاصي، وأضافوا في وسطه نافورة صغيرة، تضخّ ماء بلون الدم. وقيل أنّ الصوفي خلّاق شاهد رؤيا في المنام أوحت إليه بتلك التعديلات، وكان أمرًا مستغربًا أن يهتمّ أحدهم بتزيين مقهًى سريالي والبلاد تنتفض، لكنّهم لا يعرفون أنّها مجرّد خربشات عادية من أمني برتبة اللواء ط. ط، ليس لها أيّ هدف سوى الإحساس الذاتي بالاستقرار، أي أنّ لا اضطرابات تحدث ولا ثورة هبّت ولا شهداء سقطوا ولا نظام يترنّح، إنّها صيغة معروفة لدى كلّ الأنظمة المظلمة، حبس الضوء في جرار شفّافة، يشعّ منها لكنّهم لا يرونه.

كان خج يحسّ بتفاهته أكثر من أيّ يوم مضى، خاصّة حين اختفى صباح اليوم بالذات ولد من أبناء الحي اسمه ربحان، كان يعمل طاهيًا متدرّبًا في قصر الرئاسة، وجاء من هناك بعدد من المنشورات السرّية الخاصّة بتحويلات مالية مرعبة لبلاد قد لا يكون سمع بها المواطنون حتى، وكانت عن شراء أحداث سعيدة، وألقاب موحية بالمجد، تمنحها منظّمات مشكوك في أصلها، ومتابعين يحبّون عربات البورش، والمزراتي، ونوّاب في مجالس ليس من اختصاصها أن تنصر شعوب العالم الثالث أبدًا. ومن بينها أيضًا منشور مستفزّ جدًّا، بتوقيع الرئيس، يوصي بنشر ثقافة التقشّف، والصبر على الابتلاء، واللجوء إلى الجبال والأودية الجافّة، ورفع الأكفّ بالدعاء، حتى يعمّ الخير. كان الولد يحمل كنزًا كما قال، وردّد ذلك أمام كثيرين، لم يكن يعرف أنّ فيهم أمنيين،

سيبحثون في صلاحياتهم، وسيعثرون على فقرة اسمها: إبادة الفئران، يطبّقونها في حقّه فورًا ويستردّون عافية الفساد بلا أيّ ارتباك.

كلّم خج رئيسه في العمل الرسمي في المطار. كذب: «أمي تتثاءب منذ أمس ويقول الأطبّاء المحنّكون، أنّ التثاؤب المستمرّ في سنّ الخمسين وما فوقها، من أدلّة اقتراب الموت، وأخشى أن تموت وأنا مشغول عند البوّابة». قال: «يلزمني اليوم وغد، لأعرف أشياء كثيرة وأعود إلى العمل». لم يقل رئيسه شيئًا، وكلّف أوّل مرّة بطريقة رسمية، عامل النظافة (و. د.)، الوقوف المتصلّد عند البوّابة، فقط حذّره من دوالي الخصية والساقين، واحتمال تعرّضه لبصقة من عابر عنصري، أو ضحكة ليست حميدة من امرأة متغطرسة قادمة من أوروبّا، وترى عيوب بلادها أكثر من محاسنها.

كان خج منزعجًا جدًّا، وكونه ينتمي، اسميًّا حتى الآن، لتلك الجهة التي من المحتمل أنّها هي التي اختطفت الولد الساكن الحي، لا يعفيه من الاكتئاب والشعور بالسخط والتفاهة، والرغبة في الصياح بأعلى صوت: أنا أمني، اقتلوني، لكن يعود ويتساءل: لماذا ترك حتى الآن بلا مساءلة كبيرة عن عدم طاعته الأوامر؟ لماذا لم يجبر على وضع لثام قذر على فمه، يحجب به الترّهات، ومنح سيّارة لاند كروزر مكشوفة، مجهّزة باللامبالاة والوسخ، وقنابل الغاز والسياط؟ كأنّ ثمّة شركًا يعدّ له؟ لكن من هو ليعدّ له شركًا؟

لا يفهم، لن يفهم، لا يودّ أن يساعده الفهم بشيء، ربّما يكون لدى الجدّ مهلّل تفسيرًا من نوع يمكن هضمه، لكنّه يفرّ كلّما حاول إخباره بالوضع. والآن، خطرت على باله هبة كسّار. لم يرها منذ عامين ولا تخيّل أنّه سيراها مجدّدًا...

في البداية، بحث عن غربة، وسمع بأنّ شخصًا بمواصفاته اللعينة كان يحوم في حي بركة في اليوم الذي اختفى فيه الطبّاخ المتدرّب. شخص طويل جدًّا، ممتلئ جدًّا، ويداه غبيّتان جدًّا، قيل كانتا تلطمان الشجر والسيّارات المتوقّفة وأعمدة الكهرباء، بعصبية. قيل على جبهته بقعة داكنة يزعم أنّها تكوّنت من الطاعة، ويقسم خج أنّه نحتها بنفسه، تماشيًا مع الموضة السائدة هذه الأيّام لدى رجال السلطة. وفي تلك الفترة الوجيزة التي لم تتعدّ أشهرًا قليلة من تعرّفه إلى تلك الأجواء، اعتاد خج أن يعثر على غربة أو اللعّاق متى أراد أن يعثر على أحدهما. هناك أماكن تشكّل هوسًا لكلّ شخص، وغربة مهووس بظلال الأشجار، حيث بائعات الشاي المخضرمات أمثال سهبة وأم جمعة، والطليانية، وعائشة شيراز أشيفو، وتلك الأخيرة جامعية، جميلة جدًّا وأخّاذة، وغربة يهوى وجهها، وبراعة شفتيها، وحديثها الناعم عن طقوس شرب الشاي عند العرب وغيرهم من سكّان الأرض، وممكن أيضًا أن يعثر على واحدة من أولئك الفتيات اللائي يواعدهنّ من حين لآخر،

ويمتصصن رصيد هاتفه من الدقائق. مؤكّد لغربة يد في اختفاء عامل القصر، ولكن ماذا يقول له إن عثر عليه؟ لم يجرّب أن يهاتفه، كان يريده وجهًا لوجه.

ابتدأ خج تجواله بشجرة قريبة من حي بركة، وصل إليها بدرّاجة هوائية تخصّه لكن نادرًا ما يستخدمها. لم يعثر على غربة هناك، ولا عثر عليه عند الشجرة الثانية التي وجد تحت ظلّها شباب كثيرين يرمون الحجارة على سيّارة مرقّعة كانت تقف هناك ولا أحد داخلها. وعندما وصل منهك القوى إلى شجرة عائشة شيراز أشيفو، عثر على غربة، كان يجلس على مقعد منخفض، وبجانبه فتاة عشرينية، تبدو بلهاء، أو لعلّ ذلك الحول في عينيها خفض قيمة وجهها. كانت تتحدّث بلا توقّف، بينما عائشة شيراز أشيفو تعدّ الشاي لزبائن آخرين يرتدي أحدهم قميصًا أبيض مطبوعة عليه صورة سكّين وخوذة عسكرية.

وقف خج على مقربة من غربة وناداه: «يا ...» وكان نسي اسمه بمجرّد أن عرفه، ولا يستطيع أن يناديه غربة، لأنّ اسمه ليس غربة.

«أنت... يا».

توقّفت الفتاة عن الحديث وواجهت خج بعينيها المتحوّلتين، كانت تنظر إليه وعيناها تبدوان موجّهتين إلى خلف الشجرة العالية، حيث طفل عار متشنّج وأمه تجرّه. نهض غربة من جلسته، وقبل أن يسأله خج أيّ سؤال، قال:

– تعرف ما يحدث للخونة يا خضر، أكيد، حوادث السيّارات، والغرق وتلك المفاجآت المستمرّة. سيسلّم عامل القصر لذويه لدفنه غدًا... إنّا لله وإنّا إليه راجعون، الفاتحة. قال، ورفع يديه كأنّه يقرأ الفاتحة حقًّا، ثمّ عاد للفتاة الحولاء الثرثارة، التي كانت الآن تلتقط صورة تذكارية سلفي، مع بائعة الشاي.

9

جلس خج في مطعم خلّاق شاردًا بعض الشيء، يتحسّس المغزى من وجوده هنا، ويعرف أنّه لن يعثر على هبة كسّار ولا أيّ أحد آخر من معارفه، في هذه الظروف المدهشة من تاريخ الوطن.

كان صوت الهتاف يأتي، أزيز رصاص غير معروف إن كان للقتل أم للترويع، صراخ نسوة، نقاشات تدور بأصوات عالية، وغير ذلك، وكان انتبه إلى مدرّعات عسكرية عدّة، فيها جنود قلقون، مرابطة بالقرب من المقهى. أيضًا انتبه إلى عدد من رجال الميليشيات الفوضوية التي تحتضن السلطة، والسلطة تحتضنها، مشتّتين أمام طاولات المقهى، وأسلحتهم يقظة، يلامسونها في شغف بين حين وآخر، وكان شاهد بعضهم في شوارع كثيرة، يحملون السياط، يجلدون بها الناس والشجر، وبعضهم يداعب بها أثداء مسكينة لنساء بلا حظّ، ربّما كنّ متوفّرات في الشوارع لأيّ سبب.

– أنا وأنت أمام الحقيقة وجهًا لوجه.

عاد من شروده، كان العجوز عجبنا الذي لم يلتقه منذ عشاء الموبايلات في المكان نفسه، وإلى الطاولة نفسها تقريبًا، ولم يكن ينقص سوى أن تأتي السيدة (ن. ت.)، ويُحضَّر عشاء موبايلات آخر، صامتًا وجريحًا. كأنّ عجبنا كان يقرأ أفكاره، أو هو من يمدّه بالأفكار، نظر عميقًا في عينيه، وكان يرتدي قميصًا أزرق حيويًّا، وسروالًا من الجينز، لا يبدو مناسبًا ليرتديه شيخ:

– السيّدة نادية ترزي لن تأتي... ربّما تكون ماتت.

– نعم، ردّد خج بلا معنى، ثمّ انتبه فجأة إلى كلمة الموت، من الذي مات؟ نظر في عيني عجبنا، في ابتسامته التي لا تشبه الأخبار المفجعة.

– تقول أنّها ماتت؟

– قلت ربّما.

– ولماذا ربّما؟

– لأنّها في أفريقيا. وتعرف إيبولا، ومرض النوم، والحمّى الشوكية، وحمّى الضنك، والذبابة الرملية، ومرض تشقّق اللهاة، وعصابات الأحياء الطليقة، والرعد والصواقع، وكثيرًا من العاهات الأخرى.

ضحك وانتظر تعليقًا من خج، لكنّ خج لم يكن مرتاحًا، هو لا يعرف سلسلة الأمراض والإعاقات تلك، ولن يسأل عنها لأنّها لا تهمّه في شيء، ولو ذكر الملاريا أو التايفود أو عصابة «نصف قرش» المسكينة في حي بركة مثلًا، لربّما قال جملة جيّدة، تعليقًا على ثرثرة العجوز.

– هل سمعت آخر نكتة؟ قال عجبنا وهو يعبث بخاتم فضّي ذي فصّ بنّي في الإصبع الرابعة ليده اليسرى، أخرجه من محبسه وأدخله، مرّتين أو ثلاثًا.

شعر خج بالبرد، رغم أنّ التكييف في مقهى خلّاق لم يكن باردًا لدرجة إحداث القشعريرة، شعر بأنّه في امتحان ما، ولم يعرف قطّ لماذا هو في امتحان؟ منذ أشهر، جلس هنا برفقة ذلك الرجل، وصباح اليوم التالي اقتيد إلى القسم النموذجي للتوبة، حيث عُبّئ بالمرض، الذي يحمل جرثومته الآن ولا يدري كيف يتخلّص منها، واليوم ربّما يكون ثمّة مأزق جديد سيدخله مرغمًا، ابتدأ يفكّر في أن يكره عجبنا، يمقته، يحقد عليه، ويعاود الأمنية الشرّيرة في حقّه مرّة أخرى، فربّما تجدي هذه المرّة: أن يموت بأيّ سلاح من أسلحة الموت، مثل أن ينشط أحد أعضاء الميليشيات الموجودين أمامه الآن، ويسحقه.

أخيرًا، لكز أفكاره بعيدًا، وردّ:

– لا... لم أسمع.

بدت له الإجابة بكلمة «لا» مناسبة لذلك الجوّ المزعج.

«لا»، ردّدها مرّة أخرى، وحاول جهده أن يجعلها تعني لا أريد سماعها. لكنّ ذلك لم يجدِ.

قال عجبنا:

– أحد المساطيل سألوه: هل أنت مؤمن؟ ردّ: لا... بيتزا هت.

ضحك، ضحك كثيرًا، وكان من المفترض أن يرتجّ كرشه أثناء الضحك، لكنّه لم يكن يملك كرشًا، خج لم يضحك في البداية، لسبب بسيط جدًّا، أنّه لم يكن أرستقراطيًّا أو في سعة من العيش، ليعرف أسماء تلك المطاعم التي تبيع الوجبات السريعة، لا مؤمن ولا بيتزا هت ولا مكدونالدز، ولا غيرها. لم يكن من اللياقة أن يظلّ جامدًا وثمّة نكتة أطلقت من رجل عجوز وثري ومعروف لدى الجهات الأمنية، لدرجة أنّها لم تذكره بسوء حين تحدّثت مع خج عن السوء والخيانة. ضحك بطريقة توحي بأنّ المعنى وصل متأخّرًا، وهذا بالضبط ما يريده أمثال عجبنا من عامّة الناس، أن يكونوا بطيئين في فهم الخفايا، فتمرّ الذنوب كأنّها أقواس من نور.

– سمعت نكتة السمكة؟

هذه لم يتخيّلها خضر، وودّ لو تخيّلها، وحاول في ثانية أو ثانيتين، تضفير نكتة تخصّ السمك، فلم يستطع. كانوا أحيانًا يأكلون السمك في مطعم عوضية، أو عند طباب المتخصّص في حساء السمك، كان يشاهد الجالسين يخرجون الشوك من جسد السمك، ويمضغون، ولم يسمع أحدهم يروي نكتة عن السمكة التي يأكلها.

– لا.

– ولا أنا، قال عجبنا، وضحك. وهذه المرّة ارتجّ كلّه، كانت الرعشة في جسد خضر، قد تفاقمت، والآن يحسّ بأنّ أسنانه ترقص.

كان خلّاق نهض عن مقعده المرتفع، أمام الآلة الحاسبة السوداء، التي بدت قديمة جدًّا، وخالية من وجاهة التكنولوجيا، تجوّل في المقهى قليلًا، لمس طاولة نظيفة، وطاولة متّسخة، عدّل وضعَ كرسيّ معوجّ، ولام عاملة النظافة الآسيوية المرتبكة على وجود بقع من الزيت على الأرض بالقرب من حمام النساء... قال هل يجوز؟ قد تسقط امرأة حامل! أسرعي، لا نريد خسائر! ارتبكت العاملة وأسرعت ناحية الحمّامات، واتّجه خلّاق بنشاط إلى الطاولة التي يجلس إليها عجبنا وخضر جابر.

«سلام»، قال، وأزاح كرسيًّا فارغًا، جلس عليه.

كانت المرّة الأولى التي يحسّ فيها خج باقتراب أجله، بالرغم من أنّه مرّ على القسم النموذجي الخاصّ، وشاهد عورات الدنيا كلّها هناك. لم يكن خلّاق شخصًا عاديًّا، هذا مؤكّد، كان أشبه بالساحر، ولعلّ هيئته الغريبة باللباس الأخضر الفضفاض، والشعر المضفّر المنسدل حتى كتفيه، والحاجبين الكثيفين جدًّا، والحذاء المطّاط الذي كان صغيرًا وضيّقًا، وحتى الصوت الغريب، كلّ ذلك أضفى عليه تميمة سحرية، قدّسه بشكل أو بآخر. لم يكن خج معنيًّا بالسلام بالتأكيد، وإنّما عجبنا الذي التقط اللغة سريعًا، قال:

– مبروك المظهر الجديد للمقهى يا مولانا...

هزّ خلّاق رأسه، مع شبح ابتسامة صغير، ولم يقل شيئًا.

– هذا خضر جابر، من أمن المطار، حارس بوّابة صالة الوصول... ربّما تكون رأيته من قبل، قال عجبنا وهو يقدّمه إلى خلّاق.

مرّة أخرى، هزّ الصوفي رأسه، وابتسم، وهذه كانت أضيق من ابتسامته الأولى. كان كما يبدو، يتأمّل خج، ويكون فكرة عن تفاصيله.

قال بعد دقيقتين:

– قياس القميص 15 سنتيمترًا... قياس الخصر 34 سنتيمترًا. قياس الحذاء: 43. معدّل الذكاء: متوسّط.

نادى النادلة شفقة، أوصاها على قهوة للسيّد عجبنا والصديق خضر، لم يقل في الحقيقة: عجبنا والصديق خضر، وإنّما أشار إليهما فقط، وكان الافتراض ذلك في ذهنية خج فقط ومئة علامة استفهام تكوّنت في رأسه.

كانت المواصفات التي ذكرها خلّاق، في الواقع، هي مواصفاته شخصيًّا: 15-34-43، وبالنسبة إلى معدّل الذكاء، فلن يكون أكثر من متوسّط، هذا غريب!

كان خج خائفًا من مضاعفات لا يعرف نوعها، إحساسه بدنوّ الأجل الآن في قمّته، وابتدأ يراقب أنفاسه ليتأكّد أنّها ما زالت تعمل، نهض خلّاق من جلسته، انحنى أمام الطاولة، وطاولات عدّة، وعاد إلى مكانه هناك، حيث تنتظره مسبحته الكبيرة، اللامعة، وزبائن مرتبكون سيأتون، يقبّلون يده، أو رأسه. ويلمسون جبهته المستطيلة وأنفه الغاطس في الوجه، طلبًا للتبرّك. عاد خج إلى نفسه، في الوقت الذي كان فيه منسوبو الميليشيات، يجمعون أسلحتهم وينصرفون. سأل عجبنا:

– ماذا يقصد بتلك الأرقام والقياسات؟

ردّ:

– لا شيء شطحات صوفي فقط، تعرف معنى الشطحات؟

– لا.

– لا ضرورة لتعرف، فقط تأكّد أنّها ليست مؤذية.

بالطبع، لم تكن شطحات صوفي، لأنّ خلّاق بكلّ مظهره المطابق لأهل الطريق كما يُسمَّون، لم يكن منهم، كان أمنيًّا برتبة لواء، مغروسًا في ذلك المقهى السريالي للمساهمة في ازدهار النشاط الأمني، وكان في تلك اللحظة بالذات منتشيًا جدًّا، ويستخدم ذكاء اللعنة في تشخيص حالة خج، وغالبًا سيتأكّد من تلك القياسات في ما بعد.

أراد عجبنا أن ينهض قبل أن تأتي القهوة، لكن خج أمسك بثيابه، وسأله:

– هل سبّبت لي ضررًا؟ أرجوك هل سبّبت لي ضررًا؟

– الضرر بحسب تفسيره عند كلّ واحد، ما تراه ضررًا قد أراه منفعة والعكس صحيح، لذلك لا تسأل أحدًا هذا السؤال أبدًا.

لم يفهم خج شيئًا، كلّ ما أراد أن يتأكّد منه، هو إن كان للعجوز أيّ دور في ضمّه إلى قوى الأمن وفي زمن فيه كلّ هذه الثورة؟ أم إنّ الأمر جاء مصادفة؟ كان عجبنا قد انصرف، خطواته رشيقة كالعادة وأصغر بكثيرٍ من عمره، وزبائن آخرون انصرفوا، فنهض خج من مكانه وأسرع بالذهاب، وهو يتلفّت خلفه خوفًا من أن تكون نظرات خلّاق التي تلمس الروح وترهقها، تطارده.

في البيت حين وصل، واسترخى على سريره، تذكّر هبة كسّار، تذكّرها بشغف أكثر وقرّر أن يخرج فورًا، يبحث عن آثارها. أراد أن يقسم أنّه سيفتديها بروحه إن كانت في مأزق، وتذكّر أنّ

روحه ليست ملكه حاليًّا، إنّها من أرواح كثيرة جدًّا يملكها (ب. ب.) ضرغام، وغيره من المتغطرسين، الذين يستخدمون أدوات مثل غربة واللعّاق. تذكّر عامل الطبخ المتدرّب في القصر، ومصيره، وكيف سقطت أمه أثناء غسله، وأثناء تشييعه وأثناء دفنه، ولا تزال تسقط كلّما تذكّرته، وخاف فعلًا أن يكون مصيره كمصير ذلك الصغير المتهوّر، لا يدري... لا يدري فعلًا.

10

إنّها مليونية رثاء الدم، أو مليونية الشهداء الأولى، تلك التظاهرة الحاشدة التي نظّمتها قوى التغيير، ودعت إليها بكلّ وسائل الدعوة المتحضّرة. تظاهرة لنصرة الشهداء، وغسل عار السكوت عن دمهم، وترميم ما يمكن ترميمه من حزن أهلهم. ستطوف التظاهرة بعدد من البيوت التي استشهد فرد من سكّانها، يقولون لأمه: أمنا الغالية، لأبيه أبونا الحبيب، لجدّه وجدّته: جدّنا، جدتنا، وسينادون حتى سكّان حيه كلّهم بالأحبّة والجيران، وإن بقي شيء من المرارة، سيجد عند المتظاهرين من يحمل سكّر الأمل، لتحليته. كانت التظاهرة الكبيرة التي ستجرى أحداثها غدًا معلنة بالطبع، ويدعمها، بجانب الرسائل الخاصّة، والعامّة على الإنترنت، بعض الثوار الذين يعملون في البثّ الحي منذ زمن طويل، ويعرفهم الشعب أحرارًا، بينما تسمّيهم سلطات الظلام «أعداء الوطن»، وتتابع برامجهم بتكبّر وغطرسة وعدم اتّزان.

كانت مشكلة كبرى لخج، فقد جاء اليوم الذي كان يتهيّب مجيئه، اليوم الذي سيكلّف فيه مَهمّة تكشفه لدى الناس، وتهبط به إلى قاع الأرض، بعد أن ظلّ متّكئًا على جملة «إشعار آخر» طوال تلك الشهور، يحسّها متماسكة حينًا ومهتزّة حينًا آخر، حتى ظنّ في فترة من الفترات أنّه لا يوجد شيء اسمه إشعار آخر، وأنّه مجنّد اسمي بلا أيّ صلاحيات، دعم افتراضه ذلك بعدم تدريبه على استخدام السلاح أو منحه سلاحًا يستخدمه عشوائيًّا، عدم تدريبه على أدوات كسر العين، مثل آلة نزع الأظفار من مساكنها، آلة طمس البصر، وشقّ البطن في أماكن الفتاق بالضبط، وشدّ الخصيتين حتى تفقّدا سائل الرجولة، وعدم أمره بتعلّم القسوة والوحشية، وتفاهة القلب، بالنوم على ظهر جثّة حتى الفجر. كان يزور أماكن اكتساب التقوى تلك كما يسمّونها، يزورها ملثّمًا وخائفًا، ويقارن من بعيد مقارنات يمكن أن يذبح بسببها: أيّهما ألذّ: الحياة كضحية، أم كقاتل؟ الحياة ضبعًا أم حملا؟ الحياة مع هؤلاء أم مع أولئك؟ ولا يعرف أيّهما يختار... القاتل أم الضحية، الضبع أم الحمل؟ هؤلاء أم أولئك؟

كان يمشي في شوارع حي بركة أحيانًا بلا أيّ هدف، وأحيانًا ليلتقي بآخرين ينادونه خضر خضر... أخبار المطار يا خضر؟ معظمهم شباب متبطّلون كانوا يحلمون بالهجرة من وطن يعتبرونه مقبرة، وانتظموا في خطّ الثورة لتنفيض المقبرة من بعض الموت، أو استرداد بعض الحقوق، أقلّها حقوق الحياة قريبًا من الحياة، كما تقضي كلّ الدساتير. كان فيهم شعراء أيضًا، يحبّون الشعر الباكي لأنّ لا إيحاءات غير باكية يعرفونها، وقصّاصين يكتبون القصّة القصيرة جدًّا لأنّها جمرة، تلسع سريعًا وكفى، وحين طبّقت بعض دول الخليج العربي قوانين جديدة، وأزاحت كثيرًا من الأسر المستقرّة هناك، وجاءت تلك الأسر لتعيش مجدّدًا في الوطن، كان يعثر على فتيات ناضجات جميلات، بلا أيّ أمل، لن يسألهنّ عن آرائهنّ في الحبّ، ويعرف سلفًا أنّ لا رأي لهنّ، الجميع بلا رأي آخر خلاف التكاتف للتغيير: يسقط... يسقط... هتاف لا يحبّه غربة واللعّاق، وب. ب.، ومن هو على شاكلتهم، ولكنّ خج لا يتأثّر إلّا نادرًا، وفقط حين يحسّ برغبته في النباح، مع ذكر الكلاب.

11

المعضلة جاءت سريعة وغير عادلة.

والمفاجأة فيها أنّ عمله حارس بوّابة في المطار انتهى من تاريخ اليوم، بإحالته للضياع، الذي يسمّونه: الصالح العام...

كانت هذه أتفه نقطة في الموضوع، أي نقطة إشعار آخر المؤجّلة، التي أفرج عنها كما يبدو. صحيح أنّه كان ينتظر ذلك الإشعار، ويتوقّعه أحيانًا، ينساه، ليعود يتذكّره، لكنّ التفاعلات لا بدّ تجيء، بالضبط مثل تفاعلات امرأة طلّقت نظريًّا وتنتظر الطلاق الفعلي، لتبكي بأكثر من طاقة البكاء.

قبل مليونية الشهداء الأولى بخمس ساعات، والتي كان سيشارك فيها بوصفه أمنيًّا، يحاول أن يرصد أمواج السخط من دون أن يؤذي أحدًا، فيتغيّب ثلاث أو أربع ساعات عن عمله الرسمي حارسَ بوّابة صالة الوصول في المطار بعذر سوف يبتكره لاحقًا، كلّمه رئيسه، وكان في تلك اللحظة جالسًا على حجر، في شارع كان مرشّحًا أن تمرّ خلاله الضوضاء. كان وضع لرئيسه رنّة خاصّة في هاتفه الجوّال، وكلّ الموظفين يضعون رنّات خاصّة لرؤسائهم، وغالبًا ما تكون أسوأ نغمة في جدول النغمات المخزّنة في كلّ جهاز، تلك التي لصياح الديك، أو فحيح الحية، أو صرخة طرزان في الغابة، أو مجرّد شخير متقطّع لعجوز سمين مصاب بمرض الخناق. وكانت راجت مرّة نغمة، عبارة عن ضحكة هستيرية لمقدّم برامج تلفزيونية مخضرم، وضعها آلاف الموظفين على هواتفهم، مرادفة لأرقام رؤسائهم في العمل.

ردّ خج على رئيسه بعد أن سمع نغمة القطّة نبيهة، التي اشتراها من محلّ للهواتف، وخزّنها من أجل الرئيس. قال الرئيس: احضر إلى مكتبي في المطار فورًا.

كان رئيسًا عاديًّا، لا يرفع صوته كثيرًا، ولا يتحدّث في الهاتف أكثر من اللازم، وخج يعدّه طيّبًا وخلوقًا، وقد اعتاد على اعتماد صيغ معيّنة للطيبة والأخلاق، قد لا تكون معترفًا بها، أو لا تشبه الصيغ المتعارف عليها. مثلًا رئيسه لا يغازل تماضر وجع، بائعة الشاي المرابطة أمام بوّابة

المطار، والتي يغازلها ثلاثة أرباع الموظّفين المتاحين في تلك الإدارة، ولكنّه يغازل أمّونة سرير، المرابطة في الناحية الأخرى من الشارع. رئيسه لا يدخّن سوى السجائر المحلّية، ولا يركب سيّارة إطاراتها من بريدجستون، لاعتقاده أنّ شركة الإطارات تلك يهودية حقيرة. وفي يوم زواجه، وكان خج حاضرًا، أصرّ وهو عريس، على أن يتعشّى مع مشرّدين ويتامى اعتادوا الحضور من أطراف المدينة لتذوّق الولائم، ويعلم جيّدًا أنّهم هم من سرقوا أحذية الضيوف التي تركوها عند باب خيمة العرس. أكثر من ذلك، شاهده خج يلعب الشطرنج في مكتبه وحده، متحدّيًا نفسه، واعتبر ذلك قمّة البسالة الأخلاقية.

رئيسه بدا واجمًا، حين وقف أمامه بعد رحلة ليست طويلة بحافلة عادية، ولعلّه مصدوم من مرض زوجة أو طفل، كما فسّر خج، وهو يقف أمامه، وبصوت جاهد الرئيس على أن يجعله صوت مؤمن متمسّك بعقيدته، وفي الوقت نفسه، صوت سلوى في يوم جنائزي، وضّح:

– عندي أخبار ليست جيّدة يا خضر.

في هذه الحالة، وبمجرّد سماع تلك الجملة، لن يفكّر المرء في احتمال فقدان وظيفة، سينطلق بهواجسه سريعًا إلى الأسرة والبيت والشارع الذي يسكنه، وربّما تشمل انطلاقته الحي كلّه:

أمي؟ أختي زكية؟ مسرّة العمياء؟... صديقي عبّاس... شهداء؟...

للأمانة، لم يكن لخج صديق اسمه عبّاس، كان مجرّد اسم يمكن أن يكون بذرة من بذور المأساة، تكون على لسانه. أيضًا، كان ترك البيت وحي بركة منذ أقلّ من ثلاث ساعات، ولم يكن ثمّة خطب هناك. وبالرغم من ذلك كرّر الهاجس:

– أمي... أختي... مسرّة، صديقي...

– لا أحد مات يا رجل، لقد قرّرت الإدارة أن تستغني عن خدماتك كحارس لبوّابة الوصول، وتتمنّى لك التوفيق، في مستقبلك، في مجال آخر.

خبر لئيم، قذر، كلب، شبيه بغربة واللعّاق، و(ب. ب.) ضرغام، ما هذا الخبر؟ كان لا يزال رشيقًا، وغير مصاب بدوالي الساقين والخصية، التي تتكوّن عادة عند حرّاس البوّابات. ما زال يقف بلا شخير، أو تثاؤب أو رغبة في نزع سراويله، والبقاء عاريًا، كما حدث مع حارس سابق فقد اتّزانه فجأة. ما زال يستطيع الابتسام في وجوه الأطفال الأشقياء، والعجائز الثرثارين، ويجرّ الحقائب الثقيلة التي قد تحوي ممنوعات لواحدة مثل (ن. ت.)، ويعير جيبه ليستفرغ فيه مسافر مصاب بالغثيان. ما زال يركب الحافلة يوميًّا من حي بركة إلى هنا، ومن هنا إلى حي بركة، وإن لم يأت، فستكون البوّابة في حراسة (و. د.). ماذا حدث؟ ماذا تغيّر؟

تابع الرئيس:

– لسنا من استغنى عنك يا خضر، إنّه قرار وزاري.

وزاري في حقّ موظّف بسيط؟ من هو الوزير الذي سمع به؟ والوزراء القادمون من الأماكن البعيدة الأسطورية، لا يمرّون عبر بوّابته، هناك صالة لكبار الزوّار، وصالة للدرجة الأولى، لم يدخل أيّ منهما قطّ، ويكاد يكون متأكّدًا أنّ الحرّاس هناك، ليسوا على شاكلته، ومحتمل جدًّا أن يكونوا من الجنس اللطيف. لماذا لا يكونون من الجنس اللطيف؟

تذكّر فجأة ما غاب عنه أثناء ثورته التي كان ثلاثة أرباعها إعصارًا داخليًّا، وربعها فقط ما حدث أمام رئيسه، نعم، تذكّر تجنيده في الأمن الوطني، والإشعار الآخر الذي كان مثل السيف على عنقه، وفهم أنّهم أقالوه من وظيفته ليبدأ حياته الجديدة هناك، مع غربة واللعّاق، والمنعم، وغيرهم، يقتسم معهم المهمّات القذرة، التي يسمّونها حماية الوطن، ولم تكن في الحقيقة سوى تدمير للوطن.

هدأ... هدأ جدًّا، لدرجة أنّ رئيسه ظنّه مات واقفًا، وهذه أيضًا تعقيدات يمكن أن تحدث في كلّ مكان، ورئيسه بالذات شاهد زميلًا له يموت واقفًا أيّام كان يعمل في جمارك الميناء. ناداه... خضر... خضر، وحين تأكّد أنّه حيّ، ويتنفّس بكفاءة، سلّمه خطاب الإقالة، ومظروفًا مغلقًا، داخله ستّمئة جنيه جديدة، ولها رائحة غراء مخمّر، وحبّتين باراسيتامول، وكوبًا نصفه ماء. أعانه على قراءة خطاب الإقالة بنظّارة رقيقة تستعمل للقراءة، وأعانه على وضع حبّتي الصداع في فمه، ورفع يده الممسكة بالكوب إلى فمه ودلق المحتويات، وحين تأكّد أنّه لن يبكي، أو يتمرّغ في سجّاد المكتب، دسّ النقود في جيبه، وأمسك بيده، قاده إلى خارج الصالة، وسأله إن كان يريد سيّارة بتطبيق رحلة.

لم يردّ خج. تركه المدير، وعاد إلى الداخل ليصدر قرارًا عاجلًا بتعيين عامل النظافة: (و. د.)، حارسًا لبوّابة الوصول في المطار، برتبته القديمة نفسها.

كان خج، وأثناء مروره مع المدير إلى خارج المطار، لاحظ أو لعلّه تخيّل وجود قرود في أقفاص، وأطفال كثيرين يتغوّطون بلا حفّاظات، وشاهد أو تخيّل وجود امرأة بدينة تجرّ حقيبة ثقيلة، مؤكّد هي السيدة (ن. ت.). لم تمت إذًا، عجبنا كان كاذبًا... لا لم يكن كاذبًا. قال ربّما.

جلس خج على حجر أملس عريض، قرب بوّابة المطار، يبعد حوالى عشرين خطوة عن المكان الذي تجلس فيه تماضر وجع، التي كان يسمّيها ملكة الغزل. لم يكن يدخّن، وبمصادفة غريبة عثر على سيجارة مشتعلة كاملة، ملقاة أمامه، لا بدّ أنّ مسافرًا أشعلها، وألقى بها من دون أن يمتصّ منها شيئًا، دخّنها خج حتى انتهت، وأحس بأنّ رأسه تورّم، وثمّة رماد تكوّن في رئتيه، وساقه اليمنى فيها خدر.

فجأة، وجد اللعّاق أمامه. في الحقيقة شمّ رائحة الجوّافة أوّلًا ثمّ رآه. لم يكن وحده، كان معه رجل آخر شبيه بكلّ الأمنيين الذين شاهدهم حتى الآن، باستثناء فروق طفيفة، فقد كانت مشيته

معوجّة، بسبب قصر في إحدى ساقيه، نتج غالبًا من تجبير خاطئ لكسر قديم، أو من مرض شلل الأطفال الذي كان من ثوابت الطفولة في أحد الأيّام، وقضى عليه اللقاح المكتشف في ما بعد.

– هذا محمد لكزس، حبيبنا وصديقنا العزيز.

وضّح اللعّاق:

– كنّا نبحث عنك، لكزس سيدرّبك في نصف ساعة على استخدام عدد من الوسائل التربوية، إنّه مربٍّ جليل، تخرّج على يديه الكثيرون.

أمر مضحك للغاية، لكن لا يوجد أحد ليضحك مع الأسف. أن يصبح الأذى تربية، وصنّاع الأذى مربّين جليلين، هذه المرّة سيخبر الجدّ مهلّل بكلّ شيء، وسيزوّده في آخر عمره بحكم كثيرة، هو متأكّد أنّ الجدّ لا يعرفها. لم يعد قادرًا على استيعاب الأحداث المتلاحقة، وأصبح يجد صعوبة في تمييز الصالح من الطالح، الغبي من الأشدّ غباء، الإنسان من الحيوان، والحيوان من الحيوان نفسه. والدقّات السريعة التي بات يصدرها قلبه أبلغ دليل على التسمّم، ليس التسمّم مادّيًّا فقط، والسمّ قد يكون معنويًّا أيضًا. الجدّ قال مرّة وهو يتحدّث عن جنّيات البحر، صديقاته القديمات:

أفضل ما فيهنّ، أنهنّ يسمّمنك بالنظر، وتموت عاشقًا.

هل سيموت هو عاشقًا للخيانة؟ هل سمّم معنويًّا؟

لا يعرف، لن يعرف. لن يستطيع أن يعرف. كان يفكّر ولم يفطن إلى مرور أخته الذكية، مع عدد من النساء، يرتدين الزيّ الأبيض، ويضعن على صدورهنّ لافتات كتب عليها: احذروا الكنداكات، نحن الكنداكات، جروب كنداكات الوطن، وعبارات أخرى، كلّها عن الملكات المحاربات، الذاهبات لأخذ ثأر ما. خج لم يفطن لذلك من قبل، فحتى مساء أمس لم تكن ثمّة كنداكة موجودة في بيتهم. كانت الذكية محشوّة بترّهات الجمال، تركض من معنى تعتبره أخّاذًا إلى معنى تعتبره أخّاذًا جدًّا، لكنّ الذي حدث أنّ ابن إحدى صديقاتها المقرّبات، سقط اليوم مبكرًا جدًّا برصاص حكومي، فبكت جدًّا، وتحوّلت فورًا إلى كنداكة مستعدّة للموت. كانت النساء قد جئن إلى المطار لاستقبال نساء أخريات، قادمات من مهاجر عربية وأوروبية لنصرة الوطن، ودخلن بسهولة لأنّ الجهات الأمنية أرادت دخولهنّ، وحبسهنّ في الهجير إلى الأبد.

استطاع أخيرًا أن ينسى أشجانه، ويسأل اللعّاق، متجاهلًا لكزس، بالرغم من أنّ تساؤلات كثيرة عن الاسم الغريب، تكوّنت في رأسه:

– ولماذا يدرّبني على الوسائل التربوية؟

– لأنّ هناك دجاجة مزعجة ستربّيها، هذه مهمّتك، مع ملاحظة أنّ اللواء ضرغام مهتمّ بالموضوع، وينتظر نتائج إيجابية في شأن تلك الدجاجة.

لم يقل شيئًا، لم يقل سمعًا وطاعة، ولم يقل آسف. فاللعّاق، وغالبًا زميله، يملكان صلاحية إيذائه، إن قال لا، ولا يملكان صلاحية مكافأته، إن قال سمعًا وطاعة. كان مخدّرًا، وأراد أن يبقى مخدّرًا، في الأقلّ حتى يتكوّن له مخرج... دجاجة مؤذية، وعادة يسمّون من يزعجهم دجاجًا أو سحالي أو صراصير بالوعات، ترى من هذه الدجاجة؟ لن يفكّر...

أركبه الرجلان واحدة من العربات المشبوهة كانت متوقّفة على بعد شارعين من المطار، وبطريقة توحي بأنّها خردة لم تستخدم منذ زمن بعيد. كانت إطاراتها ملساء بلا تعرّجات، هيكلها متّسخ، زجاجها الأمامي مكسور، وعلى جانبها الأيمن كتب بخطّ أحمر ملتو: الثورة خيار الشعب. ساقاه عبر شوارع فرعية شبه مقفرة، إلى مقرّ أمني لم يره من قبل، وكان بيتًا كبيرًا، في حي أرستقراطي شديد الهدوء، له حديقة واسعة، وأشجار معمّرة خضراء، وثمة دجاج وحمام وإوزّ يتبختر، وفي غرفة بالداخل، كتب على بابها بخطّ سيّئ جدًّا: التربية الخاصّة – سرّي، فتحها لكزس بمفتاح غريب الشكل، كانت ثمة أدوات كثيرة فيها: مشارط، مقصّات، أدوات حلاقة، شواكيش، واقيات ذكرية في علب خشنة، إبر، وخيوط متعدّدة الأحجام، ممّا يستخدم في لمّ الجروح. كانت غرفة جرّاح، وفي الوقت نفسه، غرفة مخبول، ومحمد لكزس بتفاصيله المريضة، المرتبكة، لا يبدو جرّاحًا، وأيضًا لا يبدو مخبولًا، لأنّ المخبولين لا يملكون صبرًا للعمل في المهمّات السرّية، إنّهم علنيون، يعرف خج أكثر من مئة مخبول، يتعرّون، ويصرخون، ويخنقون أعمدة الكهرباء، ويمارسون لقاءات حميمة مع الأشجار، والرمل والحصى، والشوارع ضاجّة حولهم.

تأمّل خج الغرفة جيّدًا، واستطاع أن يعثر على حمّالة ثديين سوداء تبدو تالفة، وسروال بنفسجي صغير، كأنّه لطفلة، وبطاقة شحن هاتف مستخدمة، من شركة «اتّصل»، وعدد من المسدّسات المتنوعة الأحجام، واجمة على طاولة مغبرّة، وقصيدة معلّقة على الجدار المقابل للباب، بالتدقيق فيها، اكتشف أنّها أغنية اللواء (ب. ب.) المفضّلة.

نصف ساعة قبيح أمضاه خج، مشلول السحنة والإرادة، مع المربّي الفاضل، وخرج إلى الطريق يتبع الكآبة.

كان اللعّاق قد اختفى، بدليل عدم وجود أيّ أثر لعطر الجوّافة في المكان، والعربة المرقّعة التي قدموا فيها اختفت أيضًا. اضطرّ خج إلى أن يمشي أكثر من ساعة ليعثر على طريق مأهول بالسخط، يقوده إلى حيث يلتحم بالتظاهرة التي لا بدّ قطعت شوطًا كبيرًا في إبراز وجهة نظر الوطن المرتقب، كما قطع حرّاس الظلام أيضًا الشوط نفسه في محاولة خنق الهتاف، وإزاحة الساخطين. تمنّى خج ألّا يكون أحد سقط، أو عذّب وألّا تكون قنابل غاز سقطت على وسيمين وأحرقت عيونهم، وعلى كنداكات رائعات، وانتقمت من روعتهنّ. كان الآن في قمّة التدهور

المعنوي، رجل أمن بلا وظيفة أخرى سوى رجل أمن، ومواطن لا يودّ أن يكون غير مواطن. كان لكزس قد حشر في جيبه مسدّسًا التقطه من على تلك الطاولة المغبرّة، ووردة، حمراء لا يدري من أين أحضرها. قال: «الوردة لاصطياد الدجاجة، والمسدّس أيضًا لاصطيادها، إن لم تجد الوردة، لا تخف، إنّه مسدّس سريع، يؤدّي المهمّات وحده.»

كانت مليونية الشهداء الأولى قد وصلت الآن إلى قرب قصر الرئاسة، وكثير من رجال الشرطة، والأمن، والميليشيات المسلّحة التي تحرس النظام، يحاولون خنق الهتاف، وإطفاء الحماسة، وإحداث خلل بشع في تذوّق المتظاهرين بعضهم بعضًا. كانوا يتحرّشون بالكنداكات ويختفون، لتشتبك معارك صغيرة غير ضرورية ولا تلبث أن تنفض، حين يتذكّر الناس أنّهم سلميون، خرجوا بسلمية، وسيعودون إلى بيوتهم راكبين المواصلات السلمية نفسها، وإن ماتوا يموتوا سلميين.

كان الصراخ كثيفًا، والموت موجودًا وغبيًّا، في أيدي قنّاصة منتشرين على الأسطح العالية وقمم الأشجار، وبالقرب من السخط، ويمكن أن يكون القنّاص أيّ واحد هناك، أيّ رجل، أيّ امرأة، أيّ طفل، أيّ شيطان: سقط ثائر... سقطت كنداكة، أخي، أختى، عمّي أحمد...

انضمّ خج إلى أطرف التظاهرة، يتتبّع الشوك، يراقب البغضاء في أبهى صورها، ويبكي من الداخل. كانت الدجاجة التي عهد إليه باقتناصها، هي هبة كسّار مع الأسف.

12

كانوا يعدّون المكتسبات والخسائر في حي بركة، وبالتأكيد في الوطن كلّه، بعد مليونية الشهداء الثانية التي انطلقت ظهر اليوم، وخج بلا عمل سوى تتبّع المليونيات، بحثًا عن هبة كسّار أوّلًا، وعن طريقة يستعيد بها ثوابته القديمة، ثانيًا، وكان يعي جيّدًا، أنّ الطريقة الوحيدة المتاحة لاستعادة تلك الثوابت هي الموت.

كانوا يتحدّثون عن اقتراب النهاية، وقد يكون الأمر حقيقيًّا، لأنّ الموت الذي كان السيف القديم المشرّع دائمًا في وجه الحقائق، والمرفرف قريبًا من الأرواح الشفّافة، لم يعد مربكًا لأحد، وكثيرون زيّنوا وجهه المتخيّل بالورود، آخرون صادقوه عنوة، أفطروا، وتغدّوا، وتعشّوا معه، وكنداكات في غاية الجمال والتحضّر، اتّخذنه حبيبًا أخّاذًا، يمكن أن يتزوّجنه، ويتبادلن معه العواطف كلّها، اقتربت النهاية، سمعهم خج يقولون ذلك، سمعهم في أيّ مكان استرخى أو تشنّج فيه في ذلك اليوم المشهود – يوم مليونية الشهداء الأولى التي لم ترد أن تتفرّق، رغم جهود زملاء خج في تفريقها، وتفرّقت فقط حين تأكّد الجميع أنّها هزأت من السلطة جيّدًا.

بالنسبة إلى خج بالذات، كان اليوم كئيبًا جدًّا، ربّما أكثر يوم بكى فيه، ذلك أنّه شاهد الفتاة التي كلّفوه كسرها وترويعها وفعل كلّ ما هو ضروري وقبيح من أجل أن تنتهي كامرأة وإنسان وحياة... شاهدها وكانت تقف على مقعد مرتفع بسواعد شابّة، وسط الحشود، ثوبها أبيض ناصع جدًّا، لا سراويل جينز ولا إضافات جمالية من أيّ نوع، ويظنّ حتى أنّ الرأسمالي براد بيت لم يعد موجودًا داخل عاطفتها الآن. لقد تغيّرت تمامًا، لكنّه عرفها من خفقان قلبه أوّلًا، ومن الجمال الهستيري الذي ظلّ يغلّفها بالرغم من أنّها لم تتعمّد إظهاره، على العكس كانت تحاول دسّه لتبدو ثائرة حقيقية مجرّدة من كلّ معاني التباهي الإنساني. أيضًا، طرأ تبدّل يمكن ملاحظته في صوتها، لم يكن الصوت المحتفي بالأنوثة الفجّة التي تتكسّر فيها النساء ويصبحن نغمات رخوة، هو صوت امرأة، بلا شكّ، صوت فتاة، لكنّه متماسك، وجادّ، ويردّد الهتافات: «ثورة... ثورة...»، بلا أيّ إضافة.

شاهدها وتلفّت في هلع صوب البنايات العالية القريبة، والأشجار التي يمكن أن تخفي غرابًا أو ثعلبًا أو حيّة رقطاء بين أغصانها، تلفّت إلى بعيد، وبعيد جدًّا، وبعيد جدًّا جدًّا، وبعيد جدًّا جدًّا جدًّا، حيث سيّارات عسكرية متخمة بالجنود، وآليات مدرّعة مهووسة بالموت، وسلاح أبيض وأحمر، وتفاهات مروّعة أخرى ترابط هناك، كان يخاف من القنص، من الفتك من بعيد، وأراد أن يفتديها بروحه لو استطاع الفكاك من غفلته وجنون رؤسائه الجدد، هو لا يملك روحه، وبالرغم من ذلك، يملك أحلام أن يملك روحه. ركض نحو بؤرة الجيَشَان، اقترب ويداه تفرّقان الحشود من حول الضوء وصاح: «هبة... هبة... هبة».

سمع من يصحّحه: «الكنداكة هبة كسّار... أيقونة الثورة...».

صحيح أنّها لم تكن تهتف وحدها، ولم تكن الوحيدة المرتفعة فوق أعناق الثوّار، لكن مؤكّد كانت الألمع، وانتبه في تلك اللحظة بالذات، وبعد أن لمس تشنّج قلبه، إلى تحوّره الهستيري، من مجرّد شخص، عاشر تفاهات تلك الفتاة أيّام تفاهاتها، إلى متيّم جديد بالفتاة نفسها، ولكن بعد أن تغيّرت هي أيضًا... وتغيّر الزمان والمكان والأحلام. كانت في الواقع فتاة عادية، تعرّفت إلى جزء من الحياة الرغدة ذات يوم، ثمّ تعرّفت إلى الحياة المرّة أيضًا، حين أرادت الحياة امرأة حرّة، في وطن من المفترض أنّه حرّ، وخنقتها كلّ الأجواء المحيطة، ساومها كثيرون في أشياء كثيرة، ودخلت السجن مرّة مدّة يومين، لأنّ قاضيًا مهووسًا بها عملت معه بعد تخرّجها، ولم تبادله الهوس، أرادها مشبوهة، وخرجت من السجن إلى الثورة، فتاة جديدة الآن.

«كنداكة هبة... كنداكة هبة...»، كان يهمس ويثق تمامًا في أنّ الهمس وصل إلى الفتاة، لأنّه كان الأقرب إليها في تلك اللحظة، لا يحمل مقعدها، ولكن يكاد يحمله. كيف حدث ذلك؟ لا يعرف لكنّه حدث، أنزلها الثوّار في تلك اللحظة، وضعوا فتاة أخرى صغيرة الجسم كانت تلحّ لتصعد على المقعد ورفعوها.

كانت الآن تقف على الأرض، تتأمّله بعينين جميلتين جدًّا، وتسأل:

سائق المايكروباص الأبيض، صديق بابا؟

مؤكّد اختلط عليها الأمر، مؤكّد كلّ تغيير يحدث، يتبعه تشوّش ما، ربّما كان هناك سائق حافلة بيضاء، يعرفه أبوها، أدّى خدمات جليلة للعائلة. هو لم يؤدّ خدمات للعائلة، كان في تلك الأيّام يكفّر عن أمنيته الشرّيرة في حقّ الأب، ولا يعرف عن العائلة أيّ شيء، أمها، إخوتها، أعمامها... عمّاتها... خالاتها...

– أنا حارس بوّابة المطار...

لم يقل سابقًا بالرغم من أنّ عبارة سابقًا صحيحة تمامًا في حالته، والفتاة لا يهمّها إن كان سابقًا أم الآن، أم إنّه سيحرس البوّابة في المستقبل، هي لم تخرج في التظاهرة لملاقاة الذكريات، لكن

للذكريات أيضًا أصداء لن تضيع إذا التقى بها أحد، حتى لو مصادفة.

الآن عرفته، عرفته جدًّا، لدرجة أن احتضنته وبكت معه ذكرى مرور ثلاث سنوات على وفاة والدها السيّد إدريس كسّار، الموظّف السابق في إدارة الأراضي. البكاء ظاهريًّا كان بهذه المناسبة، وداخليًّا من أجل الانتصار المرتقب على الظلم...

«نحن ننتصر... ننتصر يا حارس البوّابة...»

ارتفع الهتاف الآن من المحيطين بهما وانتقل إلى الجموع المتقاطرة من كلّ صوب: «ننتصر... يا حارس البوّابة... ننتصر... يا حارس البوّابة... ننتصر».

خج لم يستطع أن يظلّ واقفًا مندهشًا هكذا، ولم يستطع أن يسحب الكنداكة بعيدًا ليخبرها بقصص كثيرة تحتاج بعد سماعها إلى أن تندسّ في مكان لا يصل إليه (ب. ب.) وغيره. لم يستطع كذلك أن يجلس تحت تلك الشجرة، طلبًا للظلّ. في تلك اللحظة المرتبكة، جاءت موجة هادرة من الثوّار تطاردها الغازات، ويهدر خلفها الرصاص، أغمض خج عينيه وفتحهما ليجد المكان شبه خال، ولا أثر للكنداكة الحبيبة، ركض، ركض بكلّ ما يملك من تناغم وأسًى، كان الرصاص يطارده أيضًا، ومؤكّد يطارد كلّ حياة كانت هناك، حتى لو كانت حياة رجل أمن في مهمّة... مرّ بجروح وحطام... وربّما موتى وخيّل إليه لحظة أنّه شاهد أخته الذكية تتسلّق عربة مكشوفة كانت تنتشل النساء من الفوران، لكنّه لم يستطع أن يتأكّد.

حين استطاع أن يتوارى أخيرًا، في ركن مهجور قرب المستشفى الحكومي العامّ، ويتفقّد يديه ورجليه، وضربات قلبه، لم يصدّق أنّه رجل أمن في مهمّة قذرة، صحيح أنّه لن ينفّذ تلك المهمّة، لكن ليس من المفترض أن يبدو واجفًا إلى هذا الحدّ. مشى على قدميه حتى حي بركة، مشى مسافة طويلة جدًّا، وشاهد في مدخل الحي سيّارة مرقّعة مقلوبة على ظهرها، وأخرى مصابة بتلف كبير من جراء سقوط شجرة عليها. شاهد عسكريين من الجيش، والميليشيات الفوضوية، مرابطين هناك، بعضهم يدخّن، وبعضهم يعبث بالهاتف المحمول، وبعضهم يحمل سياطًا، يجلد بها ظهر الهواء في متعة. سألته امرأة تبكي، كان من الواضح أنّها تسأل الناس كلّهم: «هل شاهدت ولدي موسى؟ إنّه صغير وغبي، حافي القدمين ويحلم بتذوّق الآيس كريم».

ردّ: «نعم، هو في الطريق إليك»، وكان هذا أقصى ما استطاع تقديمه لامرأة باكية تسأل، وتنتظر.

كانوا يعدّون المكاسب والخسارات.

انتصرنا، هذا مكسب.

أصبنا الكلاب بالرعب.

قلبنا سيّارة، حطّمنا أخرى... هذه مكاسب.

فرح لم يعد...

فرح الصغير، الشاب السيّئ الحظّ، الذي تصدّى لغربة واللعّاق يوم اقتادا خج إلى القسم النموذجي للتوبة، الولد الذي أقسم اللعّاق أن يدمّره، وغير معروف حتى الآن إن كان دمّره أم لا.

سعاد مفقودة.

المرأة التي تكسر زجاج السيّارات مفقودة.

الكنداكة فاطمة، التي تحمل قناني الماء على ظهرها وتسقي الثوّار... لم تعد.

خليل، علي، ثلاثة أو أربعة شباب مثلهما، لم يعودوا.

فكّر خج في السؤال عن أخته، لكنّه شاهدها فجأة، وسط المتجمّعين في وسط الحي، يعدّون المكاسب والخسائر، لقد عادت. ومعها عادت ابنتها مسرّة، الفتاة التي لا تبصر، وأصرّت وهي في العاشرة من عمرها، على أن تغدو أصغر كنداكة بلا بصر في العالم كلّه، وكانت محقّة، لأنّ العالم أصبح الآن يعرف الكنداكات، يتذوّقهنّ ومن الممكن جدًّا أن تمنح جائزة من جهة تقدّر التضحيات جدًّا. كانت قصيدتها التي صاغتها بموهبة استثنائية، أسمتها: ثورتي، وألقتها هناك وسط المتظاهرين، مرشّحة لتصبح القصيدة الأكثر روعة في قصائد الثورة كلّها.

فجأة، صاح أحدهم، وكان تيتم، سائق الحافلة، ابن عمّ خضر جابر: «الجدّ مهلّل مفقود».

– وما علاقة الجدّ بمليونية الشهداء؟ كان أحدهم يسأل، لعلّه خج أو أيّ واحد آخر.

– خرج فيها بعناد وإصرار، أنا أوصلته إلى طرف التظاهرة وتركته هناك.

لم يصدّق خج، لم يصدّق أيّ أحد، أنّ جدًّا في التسعين، يمكنه أن يمشي في تظاهرة، أو ينظر إلى تداعيات تظاهرة، أو يجلس تحت شجرة تمرّ بجانبها تظاهرة، أو حتى يحلم مجرّد حلم، أنّه شارك أو سيشارك في تظاهرة. وذلك الاتّهام القديم الذي ألبسوه إيّاه، ليضغطوا على خج، كان مجرّد كلام، لكن لماذا يكذب تيتم؟

أسرع خج إلى بيت الجدّ في ذلك الزقاق المزركش بجداريات الرسّام فيصل، ربّما يكون عاد مرهقًا ومحطّمًا من ثقل المهمّة، ورقد. ربّما لم يحتمل عمره كلّ ذلك التنوّع الإنساني، ومات.

كان الباب مفتوحًا، سرير الحبال في مكانه من حوش البيت، القطّة التي تنبش الحجر موجودة ولا تزال تنبش الحجر، الصالة مرتّبة ما عدا الصور المغبرّة المالحة، المطبخ كالعادة، كلّ الأواني متّسخة، وحوض الغسيل متّسخ، وفي الغرف لا جديد... رائحة الجدّ فقط، ولا شيء آخر.

إذًا، لم يعد.

13

لم يُعثَر على الجدّ مهلّل قطّ، وطوال يومين، نشط عدد من ثوّار حي بركة، بحثًا عنه في الأماكن التي من المحتمل أن يقصدها جدّ في آخر العمر، لا بدّ من أنّه يعاني من عطبٍ ما في ذاكرته، مهما كانت قوية وبشعة في التذكّر. بحثوا في الشوارع الخلفية للأحياء النائية، في البيوت التي قد يكون فيها نساء عجائز هنّ أنفسهنّ ضائعات ولا يعرفن من أين يبدأن وإلى أين ينتهين، في المستشفيات كلّها، تلك التي تطوّعت بإيواء الثوّار الجرحى والمرهقين، والتي عاملتهم ببرود وقح، والتي طاردتهم بحرّاس بوّاباتها، في المشرحة الكبرى سعة خمس وثمانين جثّة، التي من المحتمل أن يكون فيها جسد هزيل جدًّا ليس بسبب سوء التغذية، وإنّما بسبب عدم قدرة التغذية على إحداث تغيير فيه... فكّروا أيضًا بالبحث في أقسام الأمن، وهذه مهمّة رزيلة وصعبة، لم يستطع أحد أن يقوم بها، فتبرّع خج قائلًا أنّه يعرف أصدقاء لهم أصدقاء وللآخرين أصدقاء أيضًا في الجهاز الأمني وسيسعى عن طريق تلك السلسلة التي لا بأس بها للبحث عن الجدّ مهلّل. كان خائفًا أن يخطئ في نطق أيّ عبارة، أو أن يلتفت أيّ التفاتة خاطئة، أو أن يئنّ هاتفه بكلمات مبهمة سيضطرّ إلى أن يردّ عليها بكلمات مبهمة، أثناء وجوده وسط حشد أهل بركة. ابتعد قليلًا عن تجمّع الناس، واتّصل بغربة واللعّاق وكلّمهما بجدّية عن معضلة اختفاء الجدّ، والتي إن اتّضح وجود يد للأمن فيها، ستتحوّل الثورة تدريجيًّا إلى ثورة أحفاد منتقمين وتلك أعمق كثيرًا من ثورة الجوع والفقر والمرض التي تشتعل هتافاتها الآن.

اللعّاق لم يقل شيئًا، لم يقل سأبحث أو لن أبحث، عندنا أو ليس عندنا، مات أم ما زال يرفرف بعمره التسعيني، همهم بلكنة غير مفهومة وأغلق الخطّ.

غربة كان متعاونًا بعض الشيء، سرد وحده أوصاف الجدّ مهلّل، طوله، عرضه، وجهه الذي لا يمكن وصفه بدقّة أبدًا، مشيته، خروج الغازات من بطنه بعد كلّ وجبة، والمخاط من صدره حتى حين لا يسعل، كان قلب خج ينبح، وينتظر أن يقول غربة عندنا، تعالوا وخذوه، لكنّ ذلك لم يحدث،

كان غربة في الحقيقة يدلي بأوصاف أرشيفية للجدّ، وختم حديثه بأن قال: ليس في أيّ من أقسامنا... تعال وتأكّد بنفسك.

لم يكن خج يريد أن يتأكّد من شيء بنفسه. «تلك مشكلة كبرى بكلّ تأكيد»، قال لأهل حي بركة، «عظّم الله أجركم في مهلّل عيسى موقّتًا حتى نعثر عليه، فإن كان حيًّا سحبنا العزاء، وإن كان ميتًا، تركناه كما هو...».

كانت خمس جنازات، تلك التي خرجت من حي بركة في ذلك اليوم، أولاها جنازة فرح، الولد الصغير المتهوّر، وقد عثر على جسده منتهكًا في كلّ شبر فيه، ومربوطًا إلى جذع شجرة في أحد الأحياء النائية، حي لم يسمع به، ولم يذهب إليه قطّ. كان والده، موظّف البريد، قد يبست دموعه تمامًا حين خاطبه في المرّة الأخيرة، وهو مسجًّى أمامه على سرير الحبال. قال... قم يا ولد، قم واذهب إلى المدرسة.

أم الولد أيضًا كانت مصدومة، ولعلّها مستغربة من رحيل ولد كانوا يعتبرونه زهرة الأسرة، ولعلّها أيضًا فكّرت عشرات المرّات أن تسأل تلك الرصاصات البنّية الداكنة التي استخرجوها من جسده، عن السبب في أنّها كانت هناك. لم يفكّر خج في اللعّاق كمصدر محتمل للقتل، لم يفكّر في غربة أيضًا، ولا يدري لماذا فكّر في ذلك القصير الذي يسمّونه شيخ الأحباب – ولا يدري خج مغزى التسمية، القصير الأحدب الذي شاهده عاريًا وباركًا على صدر فتاة، في أوّل يوم دخل فيه الدهاليز المظلمة، ثمّ شاهده بعد ذلك كثيرًا. لقد فكّر فيه بالرغم من أنّه لم يشاهده في حي بركة، أو قريبًا منه قطّ، ولم يلمحه في تظاهرة الشهداء الثانية التي ضاع فيها هؤلاء الأحباب...

ثلاثة آخرون كانوا يملأون الحزن جيّدًا. امرأة طيّبة، قيل كانت في حوش بيتها تزغرد بسبب اقتراب زواج إحدى بناتها، حين فاجأتها الرصاصة، ورجل عادي بأفكار عادية جدًّا، أراد أن ينصح عسكريًّا مدجّجًا، يقف أمام آليّة عسكرية، بضرورة توخّي الحذر لأنّ حمل الآسلحة أشبه بحمل الذنوب، فمات... والمغنّي حربي، وهذا مغنٍّ مغمور جدًّا، لم يسمع به حتى ابن أخته المحبّ للفنّ، وكان صرّح مجرّد تصريح، قد يكون كاذبًا فيه، أنّه لحّن أغنية ثورية، وخرج بعد ذلك في التظاهرة، ليمزّقه الرصاص.

كان النعش الخامس بلا ميت، إنّه النعش الرمزي للجدّ مهلّل، الذي سيُدفن محتويًا على أكثر القطع التي كان يستخدمها في ملابسه القليلة، أحضرها خج من بيته، وكان ذهب إليه في يوم التشييع من أجل هذا الغرض، وفوجئ بوجود سكّان غرباء، احتلّوا الغرفتين الضيّقتين، والصالة، ورصّوا أدوات جديدة في المطبخ، وارتكبوا واحدة من الغلطات التي لم يكن ليغفرها الجدّ حيًّا أو ميتًا، ذلك أنّهم لمّوا صوره المغبرّة المالحة من مكانها، وألقوا بها في درج عميق من أدراج أتفه خزانة موجودة في البيت.

دخل خج لأنّ الباب كان مفتوحًا، وهو وضع يعرفه جيّدًا، بوجود الجدّ وعدم وجوده. سمع أغنية تبثّ من راديو أو تلفزيون، دخل الصالة ركضًا، وهو يتوقّع أن يرى الجدّ، مشحونًا بإثارة ما، يرقص بقدمين متعبتين، لكنّه فوجئ بامرأة متوسّطة العمر، كاشفة ساقيها، تزيل الشعر بعجينة الحلاوة المسمّاة أيضًا: سكّر البنات. استغرب، وللأمانة ظنّها جنّية الجدّ القديمة وقد عادت من الماضي السحيق، أمّا المرأة فلم تفاجأ قطّ. ظلّت صامتة، ومهمومة بتمليس جلدها. تجاوزها، دخل غرفة الجدّ، لمّ الملابس التي يريدها وأراد الذهاب. حين وصل إلى الباب نادته المرأة، قالت:« نحن أهل مهلّل، وورثنا بيته، هل تريد شيئًا؟».

هل مات؟ هل وصل إلى درجة أن يورث؟ أراد العودة وصفعها، استدار فعلًا ويده التي لا تحمل الملابس مرفوعة، لكنّه غيّر رأيه. ربّما كانت بالفعل شبحًا أو خيالًا ظهر له لتضييع الوقت، وأهل حي بركة ينتظرونه ليحضر الجدّ الرمزي حتى يبدأ موكب التشييع.

كان موكبًا حزينًا وأيضًا ظافرًا بالهتافات التي ما تركت حتفًا شنيعًا إلّا تمنّته للطغمة الحاكمة، سار فيه سكّان الحي كلّهم، وسكّان أحياء مجاورة لهم صلات طيّبة بحي بركة، وعندهم شهداء دفنوا يوم أمس. سار أيضًا عدد من الأمنيين، الذين لا يعرف إن كانوا هم من قتلوا القتلى أم مجرّد أمنيين روتينيين مندسّين في موكب تشييع.

خج لم يجد وقتًا ليفكّر في تحوّل الذكية من امرأة رخوة إلى كنداكة، ومسرّة من فتاة عمياء إلى مشروع كنداكة تنظم الشعر، حقيقة لم يأته التفكير، ويشاهد الذكية وابنتها، مغروستين في كلّ شبر من أشبار الزحف نحو النصر، ويكاد يثق في أنّ أخته بالذات، هي التي ستكشف شخصيته الخفية ذات يوم، وربّما تحرّض على إعدامه أيضًا.

14

كانت ثمّة مشكلة، حدثت فجأة في حي بركة، وكادت تشغل الناس عن مواصلة الكفاح لإسقاط السلطة الحاكمة، ذلك أنّ الغرباء الذين سكنوا منزل الجدّ مهلّل، ومن دون أن يعرف أحد إن كان ميتًا فعلًا، أم لا يزال يغرّد بالحياة في مكان ما، بدوا متغطرسين جدًّا في تعاملهم اليومي مع سكّان الحي. فقد اكتشف بعض المرابطين في الشوارع من سكّان الحي، أن المرأة التي كانت تزيل الشعر عن ساقيها بحلوى سكّر البنات، ليست طيّبة ولا محترمة، ولا تستحقّ بيتًا عاش فيه الجدّ أكثر من ثلاثين عامًا من دون أن يتضرّر من عشرته أحد، وكان اشتراه بعد تقاعده عن ركوب البحر، وهجره الميناء. كانت المرأة تتعمّد دلق ماء الغسيل الآسن تحت أرجل العابرين بالزقاق، تتعمّد طرقعة العلكة أمام الشرفاء وكبار السنّ، وتصيح بشتّى أنواع الصياحات، تلك المختصّة بالألم والضياع، والفقد المرّ، وصياحات البهجة والانتشاء أيضًا، وصياحات العثور على كنز، ولم تقل يسقط الطغاة أو ثورة حتى النصر ولا مرّة واحدة. سألوها كيف عرفت أنّ الجدّ مات ولم يكن موته مؤكّدًا، ولا يزال حتى الآن غير مؤكّد؟ وأين كانت طيلة سبعة وأربعين عامًا، هي عمرها الذي قدّره أهل الحي، لم تسأل فيها عن العجوز، لم تبرّه بسلام أو كلام أو ابتسامة، أو قطعة كسرة يابسة، أو وجبة من طبيخ اليقطين الذي يحبّه، ويشتهيه؟ ولا يعرف كيف يطبخ، وبلغ من محبّته لطبيخ اليقطين، بالتحديد، أنّه كان يقيم مسابقة سنوية للنساء، اسمها مسابقة طبخ القرع، هو الحكم فيها، يحدّد الفائزة، ويمنحها قروشًا عدّة من تلك التي يكتنزها من أيّام البحر البعيدة... كان في عرف أهل الحي بلا أهل، ولا يزال بلا أهل حتى لو أزالت المرأة المتوسطة العمر، واسمها غالبًا زليخة وتسمّي نفسها: زيخي، وأحيانًا زخزوخ، شعر سرّتها على مقبرته الرمزية.

المرأة ردّت بترفّع، بالرغم من أنّ أنفها غائر في الوجه، ولا يجيد صناعة الترفّع. قالت: أنا حلّامة سيّئة الحظّ، أحلم بالأشياء البغيضة أكثر من المبهجة. وبالرغم من أنّني أقرب الأقربين إلى الجدّ، من ناحية أبي، إلّا أنّني لم أحتكّ به قطّ، أسمع أنّه يستعبد النساء، ولا يسمح للمرأة بالانتقال من الحزن إلى الفرح، ومن تحت السرير إلى أعلى السرير، إلا بإذن مسبق، موقّع ومختوم بختم

يحمله في جيبه. كنت أكلّمه من بعيد، أتبعه في الأسواق وأحيّي ظلّه، وقد أحكي للظلّ أيّ حكاية من حكايات العائلة المتوارثة، أنا امرأة أنيقة، أنيقة جدًّا... صدّقوني لم أسرق من أحد، كانت تقول، وتدور حول نفسها من دون أن يبدو عليها أيّ أناقة ظاهرة، أو باطنة. كان من الواضح أنّ لا شيء يعنيها في أيّ شيء. وتلك الأصداء القريبة والبعيدة للحياة الآن والحياة المستقبلية، إن انتصرت القوى الداعية للتغيير بالفعل، لا تعني أيّ شيء...

الرجل الذي قال أنّه زوجها منذ عام 1997، وأنّهما عقدا قرانهما داخل حافلة كان فيها مصادفة مأذون وشاهدان عدلان، ردّد أنّه يعرف الجدّ جيّدًا، وشاهده مرّات عدّة في أماكن متفرّقة من المدينة، فيها بيوت للعب القمار، وخمّارات سرّية. أكّد أنّ امرأته فعلًا قريبة من الدرجة الأولى لعمّها مهلّل، ومن حقّها أن ترث حتى سمعته السيّئة، وهو يعرف أنّ هناك سمعة سيّئة لصقت به، وأنّه لقّب بالملعون، في فترة من الفترات.

سألوه عن سبب تلك السمعة، في رأيه، فقال:

– تأييد الخارجين على الشرعية.

– من الخارجين على الشرعية؟

– الغوغاء.

– أيّ غوغاء؟

– الخارجين على الشرعية.

– أيّ خارجين على الشرعية؟

– الغوغاء.

كان الأمر سيتحوّل إلى جدل بيزنطي، بلا شكّ، لولا محاصرة تلك التفاهة كلّها. بكثير من التعقّل، اتّفق سكّان حي بركة الذين تحمّسوا في البداية لطرد المرأة وزوجها وطفل صغير شديد الامتلاء، ودائمًا نصف عار – لا يعرف إن كان ابنهما أم لا، من بيت الجدّ، على أنّ لا فائدة، ولا مصلحة، ما دام لا أحد سكن بيوتهم الشخصية، وبيت الجدّ خاضع لسلطة الجدّ، إن عاد فسيفرّ الغزاة، وإن لم يعد، فليظلّوا هناك، حتى قيام الساعة. فقط ما أغاظ الناس وخاصّة خج الذي كان يحترم كلّ حماقات الجدّ، هو تلك الكومة من الأغراض التي تخصّه، والتي ردمت في الشارع العام، وأحرقت بدم بارد للغاية.

كان خج قد استطاع، وبقوّة إرادة لا يدري كيف حصل عليها، أن يؤجّل التفكير في هبة كسّار، ومهمّة إزاحتها التي أوكلت إليه. كان جلس مع أخته الكنداكة الجديدة، زكية جابر، استمع إلى قصّتها المؤلمة عن استشهاد ابن صديقتها، التي حوّلتها إلى كنداكة في نصف ساعة فقط، جلس مع مسرّة العمياء التي أصرّت على تغيير اسم كشك المرطّبات المسمّى على اسمها، إلى كشك

الشهداء، وتغيير اسم الشارع الكبير الذي تبدأ فيه التظاهرات عادة في حي بركة، قبل أن تنداح في الشوارع كلّها، من شارع الجيش، إلى شارع الكنداكات – لأنّ المرأة عمومًا في الحي – لم تعد سيّدة بيت من الطراز الأوّل ولا من الطراز الثاني ولا الثالث، كان لا شيء يُطهى في البيوت تقريبًا، كانت الثورة وجبة أولى دسمة، على الجميع أن يتناولها بكلّ حبّ. بالطبع، يمكنها أن تبكي وتتشنّج وتئنّ وتسقط مغشيًّا عليها، لكنّها لا تستطيع تغيير اسم شارع، وحتى سحب اسمها من كشك المرطّبات.

في تلك الأثناء، كانت قوى التغيير تنوّع النضال، مرّة في الطرق، حيث البلاد كلّها تناضل، مرّة في الافتراض، حيث مناضلون مخضرمون كوّنوا حكومات ظلّ متشنّجة، فيها وزراء ونوّاب وزراء، ووكلاء وزارات، وبدوا مستعدّين للهبوط من تلك الجنان العالية، في أيّ لحظة يعلن فيها عن سقوط النظام، والحقيقة كانوا يعتبرون النظام ساقطًا أصلًا، بدليل أنّ لا ماء ولا كهرباء ولا مال ولا وقود ولا دواء ولا كلمة طيّبة ولا لسان متعفّف ولا صدقة جارية، ولا علم ينتفع به، ولا ولا ولا ولا ولا ولا ولا...

في أحد الأيام، استُدعي خج من روسائه. لم يكن يملك حتى الآن جهازًا لاسلكيًّا من ذلك الذي يستخدمه اللعّاق وغربة، بل يُستدعى عادة برسالة مقتضبة في هاتفه: الغداء جاهز، أو العشاء جاهز، وتعني أن الاجتماع به سيكون ظهرًا أو ليلًا. كانت دعوة غداء هذه المرّة، لبّاها مسرعًا في سيّارة جاءت بتطبيق رحلة، واتّجهت به نحو القسم النموذجي للتوبة، أوّل قسم دخله، وسيدخله الآن مجدّدًا وربّما لن يخرج منه ثانية. الدجاجة التي أمر بتربيتها ما زالت بلا تربية. رآها مرّتين، وكلّمها مرّة، وكان من الممكن البحث عنها بجدّية بعد أن اختفت، ولا يزال مكبّلًا بعشقه الطارئ لها، يتمنّى لو هاجرت من البلاد في الأيّام الماضية بحيث لا يعثر عليها أحد. كثيرون فرّوا، راكبين الخطر، وهبة الجديدة، الكنداكة، يمكن أن تركب الخطر لكنّها لن تفرّ والثورة ملتحمة بالجماهير ولم يبق من إعلان نهاية الليل إلّا وقت قليل جدًّا. خج قدّر الوقت المتبقّي بحسب خياله المحدود، ووجده عامين، ولا يدري لما عامين بالتحديد، واستشار ابن عمّه التيتم، سائق الحافلة:

– كم تبقّى لسقوط النظام يا ثائر؟

– أربعون يومًا...

التيتم لم يكن ثائرًا نموذجيًّا، ولا شبه نموذجي، ولا قريبًا حتى من كلمة نموذج. كان أقصى ما يفعله هو الطواف بحافلته قريبًا من نقاط الغليان حتى إذا ما لعلع الرصاص، وانتشر الغاز المسيّل للدموع، أسرع يلمّ النساء الجميلات، يخرجهنّ من المكان بسرعة، ويوصلهنّ حتى بيوتهنّ، ويعود إلى حي بركة ممتلئًا بنشوة مرضية، يحكّ جلده حتى الصباح، ويشخر بترف حتى وهو جالس أمام التلفزيون. وكان ان استُدعي مرّة إلى أحد مراكز الأمن، غالبًا القسم النموذجي للتوبة، وضرب

ببجاحة في كلّ شبر من جسده، وكانت أوصاف من هاجمه تنطبق على شيخ الأحباب، القصير الأحدب.

وصل خج إلى القسم، واستُقبل ببرود من زملاء كانوا هناك ويعرفونه معرفة خافتة جدًّا، كان بينهم واحد يده اليمنى مكسورة وموضوعة في الجبس، وآخر عجوز يشبه قاطع التذاكر في حديقة الحيوان المنقرضة لكنّه ليس قاطع التذاكر، وحقيقة كان أحد الذين كلّفوا اغتيال رئيس دولة مجاورة منذ سنوات، وأخفق مع الآخرين في المهمّة، والآن هو مركون أمام شاشات المراقبة في القسم النموذجي، وإن احتاجوا إلى أمني عجوز لأيّ مهمّة، مثل التمثيل الخفي لجهاز الأمن في عزاء مواطن مات عندهم، أوفدوه...

قال الرفاق: «اللواء (ب. ب.) يريدك بصفة عاجلة».

الذي حدث أنّه انتظر اللواء حوالى عشرين ساعة، جالسًا على مقعد من الجلد المتأكّل، غالبًا محشوّ بالشوك لأنّ شيئًا غريبًا كان يرعى في مؤخّرته التي نزفت دمًا حين استطاع أن يلمسها بعد ذلك.

لم يأت اللواء، لم يمرّ، لم تصدح رائحته المتوحّشة. وقال صاحب اليد المكسورة أخيرًا بعد أن نظر إلى هاتفه الجوّال: «اذهب يا خج، لن يقابلك اللواء».

وذهب. كانت رسالة بلا شكّ، وعليه أن يستوعبها، وقد استوعبها وبدا أكثر رغبة في إنجاز مهمّة ما.

15

بسبب الرغبة في تمضية الوقت، أو الهروب من الموت حتى يسقط النظام كما كان يأمل ويأمل معه الوطن كلّه، وتحلّ كلّ المعضلات، أو ربّما بسبب البحث عن الموت، وحلّ المعضلات بأفدح الخسائر، ابتدأ خج يحوم حول أماكن قد تكون خطرة أو ضارّة في نظر الكثيرين، لكن في نظره هي أماكن محتملة لأيّ شيء مختلف قد يكون يبحث عنه أو يأتي هكذا.

بالنسبة إلى هبة كسّار، هو الآن يحبّها، هذا شيء مفروغ منه. ولو كان الجدّ موجودًا لاستشاره بشأن حبّ فتاة كانت تنادي بالتفاهة في يوم من الأيّام وحوّلها المدّ الثوري إلى كنداكة. سيقول له بصوت الانكسار الخاصّ بالعشاق: «أحببتها مذ رأيتها أوّل مرّة». ويعني بأوّل مرّة تلك التي كانت فيها امرأة معدّلة. لن يخبره عن المهمّة التي جنّد من أجلها، ولن يستشيره في أيّ شيء إضافي. خج يحسّ بالحسرة لاختفاء الجدّ، والبيت الذي كان مهمًّا في ذاكرة سكّان حي بركة، الآن فيه امرأة حلّامة وكاذبة وربّما تكون سليلة لشوارع مغبرّة وضحلة، ورجل غبي يشبه الأغبياء المنتشرين في الدنيا كلّها.

كان ثمّة شوق أيضًا لبوّابة الوصول في المطار، والتي يحرسها الآن عامل النظافة (و. د.)، بخبرة كبيرة، ومرتّب ضئيل هو مرتّب عامل النظافة، لكنّه يعرف (و. د.) الذي يملك يدين توّاقتين للشرّ، والذي كان سيمتهن اللصوصية لولا أن تخصّص في نظافة الصالات والمراحيض، ومكاتب الموظّفين التي فيها رماد سجائر، وبقايا سندوتشات تالفة...

في ذلك النهار، لم تكن ثمة تظاهرة منسّقة، بالرغم من احتدام الغليان في الأحياء كلّها، وخروج رأس النظام بخطاب أشبه بالشتيمة في وجه الشعب، وسقوط شهداء حتى في الأزقّة التي لا يتوقّع أن يغشاها الرصاص – وقد سمّي شارع بعينه في وسط المدينة، بشارع الشظايا لأنّ أكثر من عشر أشخاص من سكّانه أو العابرين فيه قتلتهم شظايا مقذوفات انفجرت في أماكن أخرى. لم يستدعه أحد إلى أيّ من الأقسام الأمنية مرّة أخرى. فقط يذكّره اللعّاق وغربة بين حين وآخر بأنّ

ثمّة مهمّة في عنقه. وفي إحدى المكالمات، قال اللعّاق أنّ صبر اللواء بدأ ينفد، واحتمالًا كبيرًا أن تستجدّ أمور قد لا تكون طيّبة.

في اليوم التالي، ذهب إلى ستّ محطّات ملتهبة، يتوقّع أن يعثر فيها على الدجاجة، عثر على دجاج كثير جدًّا، ولم تكن معه، أراد أن يسأل اللعّاق عن موقع بيتها الذي لا يعرفه، وخاف أن يلفت نظره إلى أشياء لم يفكّر فيها من قبل، مثل أن يحوم في الحي الذي تسكنه هبة، ويحاول اصطيادها كامرأة لذّة، وليس ثائرة، وهو يعرف طبع اللعّاق جيّدًا، ويتذكّر أنّه تحرّش بالذكية مرّة، وكان يمكن أن يؤذيها لولا أنّه عرف أنّها أخته. اتّصل برقمه من دون تفكير وحين ردّ تذكّر مخاوفه. قال:

– يا... هل يوجد عشاء في القسم النموذجي؟

ردّ اللعّاق، ويخاله كان يلعق مرقًا مملوًا بالذباب:

– طبعًا... لكن بعد أن تأتي بالدجاجة.

– يبدو الأمر صعبًا.

– عندك الوردة والمسدّس، انظر ما يناسبها، قال، وأغلق الخطّ.

هبة كسّار يناسبها الحبّ، وليس الدم، يناسبها أن يضع ظهره تحت تصرّفها لتصعد عليه بأحذيتها الخفيفة، من ماركة باتا وسنيكرز، ووزنها الذي لا يتعدّى خمسة وأربعين كيلوغرامًا لتصرخ: ثورتنا منتصرة، ثورتنا منتصرة. وممكن وبشيء من الحذر أن يمنحها حتى صوته، لتهتف به...

أمام بوّابة المطار التي كان حرسها تسع سنوات، وأقيل منها فجأة، وجد زحامًا غريبًا، وبالرغم من أنّ المكان أصلًا مزدحم، حتى لو لم يكن هناك قادمون من أيّ مكان، إلّا أنّ الزحام هذه المرّة كان أكثر، ثمّة أشخاص يركضون، وأشخاص لا يركضون ولا يمشون، وبؤرة فيها نفر كثير.

اضطرّ إلى أن يستخدم كلمة بشعة حتى يصل إليها. كان يردّد أمن... أمن، وتنفتح المسالك نحو البؤرة.

كان العجوز عجبنا، أو القعقاع، أو أسماء أخرى مختلفة، أنيقًا جدًّا، ومعطّرًا بأفضل عطر متاح في الدنيا، وميتًا. بجانبه حقيبته السوداء الفاخرة ماركة: كينيث، وقريبًا منه، جواز سفر أحمر كالذي يستخدمه الدبلوماسيون. سمعهم يردّدون أنّه كان في رحلة قادمة من أديس أبابا، ومات وهو واقف ينتظر سيّارة أجرة. يقولون الرحلة ليست من أديس أبابا ولكن من دار السلام، ويقولون... لا... من نيروبي. لم يكن بالإمكان إسعافه، وهو نفسه حرّك إصبع السبّابة في يده اليمنى، يمينًا ويسارًا، وهو ميت، تلك الحركة التي تعني: لا.

أحسّ خج بالصدمة أوّلًا، ثمّ أحسّ بالخوف وبدت له الأمور أعقد من أيّ وقت مضى، صحيح هو لا ينتمي لعائلة الرجل، وليس صديقًا للعائلة، لكن مجرّد المعرفة التي نشأت بينهما، كانت كفيلة

بإيواء الصدمة والخوف...

يا إلهي، لقد تمنّى يومًا أن يموت الرجل أمام المطار، وتحقّقت الأمنية بعد زمن طويل، يا إلهي!

ابتدأ يتلفّت، كان يبحث عن حجر ناتئ ربّما تعثّر فيه العجوز وسقط، كما قالت الأمنية، وكان ثمّة حجر بتلك المواصفات، مركونًا، قريبًا من الجسد. لكن لا وجود لأثر الدم في جثّة العجوز المفرطة الأناقة.

فجأة، رنّ الهاتف في جيب الجثّة، رنّ بإلحاح، بإلحاح أكثر، ولا أحد امتلك الجرأة على أن يخرجه ويردّ على المتّصل، وفي تلك اللحظة، قال أحد الواقفين وهو يشير إلى خج:

– أنت يا رجل الأمن الكريه، تصرّف، أم تعرفون قتل الناس فقط؟ قال وبصق على الأرض قريبًا من قدمي خج، وتبعه عشرات هناك، بصقوا على الأرض قريبًا من قدميه. تبعهم آخرون، أبعد قليلًا، واضطر خج إلى أن يتلاشى، قال في مسكنة: «أنا حارس بوّابة»، وابتعد بأسرع خطوات عثر عليها في جسده المرتعش.

16

ابتعد خج كثيرًا عن مكان البصقات وجثّة عجبنا. كان يمشي أحيانًا، ويركض في أحيانٍ أخرى، وانخرط في تظاهرة صغيرة، كانت تجمّعت في حي راقٍ قريب من المطار، وهدرت تشقّ شارع المطار العريض، متّجهة إلى وسط المدينة، ملغية وجود السيّارات التي فرّت من المكان واختبأت في شوارع فرعية. كان يلهث بشدّة واستعار لافتة كتب عليها: إلى مزبلة التاريخ أيّها الصهاينة، من رجل مسنّ، من الواضح أنّه يسير في التظاهرة لهدف آخر غير إسقاط النظام، رفعها إلى أعلى وراح يتلفّت إن كانت البصقات اللعينة لحقت به، ولم يكن ثمّة شيء مريب.

الآن، يفكّر في موت عجبنا... القعقاع... يفكّر فيه بتروٍّ، ويحاول ربط الحادث الذي شاهده بأحداث أخرى، اتّضح في ما بعد أنّها لا تمتّ للأمر بصلة، مثل حقّ اللجوء الاجتماعي إلى دولة أفريقية، الذي طالبت به مغنّية عرفت بحبّها للهو في دول أفريقيا، وقيل تملك أسدًا وقردًا وزرافة وثعلبًا ودجاجة متوحّشة، في بيت تقتنيه في تلك الدولة؛ أو مثل التصويت في اجتماع لهيئة الأمم المتّحدة على قرار يدين كلّ الدول التي تتبنّى الإرهاب وتتاجر بالعقائد؛ أو مثل ثقب الأوزون وتأثيره في مستقبل الأرض. هو يعرف عجبنا ولا يعرفه في الوقت نفسه، فقد ظلّ ذاك الرجل سنوات يمرّ من بوّابته ويحيّيه، وجلس معه مرّتين في مقهى الصوفي خلّاق. لم تكن هناك أيّ إشارة لحياته العائلية وأسباب أسفاره الكثيرة، صحيح أنّه يظهر في الصحف كمستثمر عظيم من حين لآخر، لكنّ هذا كلّ شيء...

يفكّر في الأمنية الشرّيرة بموته التي تمنّاها في وقت ما، فيهزّ رأسه وتهتزّ لافتة إدانة الصهيونية في يده، بينما الرجل المسنّ لاصق به من ناحية اليمين، يراقب حركة اللافتة. لماذا لا يموت عجبنا؟ شيء طبيعي أن يموت في تلك السنّ. وفي سنّ أبكر من ذلك أيضًا، والناس يموتون حتى بعد خروجهم إلى الحياة بساعاتٍ قليلة... ترى هل تعرف السيّدة (ن. ت.) بما حدث أمام البوّابة؟ مؤكّد تعرف، ولمثل هؤلاء النساء البدينات اللائي يمتلكن مواصفات يحبّها الليل، علاقات واسعة جدًّا قد تشمل أقطاب كرة القدم، وتجّار الجملة الصارمين، والمحافظين والولاة الذين لا

يدخل مكاتبهم أحد في العادة، وقد أخطأ هو كثيرًا حين لم يلجأ إليها، لتهشّ عنه جريمة تحويله إلى أمني، لكن ما أدراه أن تكون هي ساهمت في هذا التحويل، بالاشتراك مع الثري الراحل؟

قطع أفكاره احتكاك جسد به من ناحية اليسار، واندلاع رائحة تشبه إلى حدّ ما تنفّسًا من رئة فيها صديد، التفت، كان شيخ الأحباب، في ملابس غاية في السوء، مهلهلة ورثّة، يلفّ عنقه بشال رمادي، وجيب سرواله الأيمن منتفخ لا بدّ بسلاح ناري. كان يبتسم، وبرفع يده اليمنى مبرزًا الأصابع الثلاث الوسطى. اشمأزّ خج. صحيح أنّه لا يحبّ غربة واللعّاق، لكنّ عدم حبّه لهذا القصير الأحدب كان مضاعفًا، ومنذ أوّل يوم شاهده فيه عاريًا، وباركًا على صدر فتاة تصرخ، أراد ألّا يحبّه، وتحقّق له ذلك بسرعة كبيرة. أيضًا، أراد ألّا يخاف منه، لكنّ ذلك لم يتحقّق مع الأسف، والآن هو خائف، خائف جدًّا، ويفكّر في غدر محتمل.

«أنت مكلّف شيئًا؟»، سأله بدافع تحويل الخوف إلى إلفة موقّتة. وكان سؤالًا غير متوقّع من رجل أمن لرجل أمن آخر، زميل في العمل، ويفترض أن يكون زميلًا في النجاسة أيضًا، فنداء الوطن بحسب رؤية شيخ الأحباب وغربة واللعّاق، نداء كبير ومتّسع ودائمًا مشتعلً، ويمكن تلبيته في أيّ لحظة وأيّ مكان. وهذا الرجل بالذات كان يؤدّي واجبًا أرعن منذ الصباح الباكر، كان في إحدى البنايات العالية، تحت التشييد، في وسط المدينة، سلاحه ممتلئ بالموت، وقنص به ثلاثة أشخاص عاديين جدًّا، لم يخرجوا في تظاهرة، ولم يرفعوا أصواتهم: «ثورة... ثورة». كانوا باختصار شديد يتحلّقون حول صحن كبير فيه فول خشن وخبز جافّ بلّلوه بماء الفول، كانوا يفطرون. رماهم من أعلى البناية ولقمة أحدهم تقترب من فمه ولقمة آخر لا تزال تتكوّن في الصحن، ونزل من البناية، جاء يركض مع الراكضين، صرخ: المندسّون الكلاب... قتلة الشعب. كان كلبًا أجرب في تلك اللحظة، وكلّ لحظاته، لكنّه لا ينبح لأنّ هناك كلابًا فطمتها القسوة عن النباح.

كانت هناك رغبة لدى خج في أن يسأله عن سبب موت عجبنا، وإن كان لخيانة الوطن دور فيه؟ هو متأكّد أنّه يعرف عجبنا ويعرف الأدوار كلّها، لكنّه خاف أن يسأله. مضى شيخ الأحباب مسرعًا، تجاوز التظاهرة الصغيرة، وانتقل إلى الجانب الآخر من الشارع، حيث فتيات متباينات الأعمار، واقفات، ربّما ينتظرن التظاهرة لينضممن إليها أو ينتظرن مواصلات إلى مكان العمل أو البيت. حام حولهنّ، تعرّف إلى ملابسهنّ، وروائح أجسادهنّ، وحقائبهنّ اليدوية، ورنّة الموبايل عند كلّ منهنّ، وترك ريالته تسيل قليلًا عند سماع صوت ناعم صدر من إحداهنّ. جفّف الريالة ومضى. كان هاتفه يتلقّى الرسائل بلا انقطاع، ونغمة رسائله نعيق غراب.

كانت التظاهرة الآن تمرّ أمام كافتيريا خلّاق، ولا تزال المدرعّات العسكرية التي تحرس تلك الناحية موجودة – وعليها جنود يدخّنون، ويتطلّعون إلى المتظاهرين بحذر لكن لا تبدو ثمّة نيّة

للهجوم على أحد. انفلت خج من التظاهرة، ودخل كافتيريا خلّاق. كان ثمّة هاجس ناداه في تلك اللحظة، أحد الهواجس التي لا يعرف مصدرها أبدًا. وكانت هناك مفاجأة كبرى تنتظره.

على المائدة التي جلس إليها مرّتين من قبل، كان يجلس الراحل عجبنا، والسيّدة (ن. ت.)، ومعهما خلّاق الذي صبغ ضفائره بلون رمادي كثيف، وكان واجمًا... واجمًا جدًّا:

– أنت! ألم تمت أمام بوّابة المطار؟!، صرخ في وجه عجبنا.

– لا... لم أكن أصلًا في المطار.

– والذي مات هناك؟

– لا أعرف... قالها عجبنا، وأصرّ على تكرارها، كان يشكو من ألم في الساق اليسرى، وممنوعًا من السفر، والمشي المتعجّل في المطارات، وتسلّق الطائرات، وممنوعًا أيضًا من الرقص الهستيري، مع نساء الحبشة وساحل العاج، والغجريات النظيفات في سواحل غير مهمّة ولا علاقة لها بالتجارة.

– أنت متّ هناك، أصرّ خج، وفي الوقت نفسه ابتدأت هواجس بخصوص صحّة عقله، تتحدّث إليه...

هو متأكّد أنّه شاهد عجبنا ميتًا أنيقًا ومعطّرًا هناك، بجانبه حقيبة سوداء غالية، وجواز سفر أملس، ومتأكّد أنّه، يشاهده الآن داخل الكافتيريا، بصحبة نادية ترزي التي لم تمت في أفريقيا، ويجلس معهما صاحب المقهى.

أيّ الأمرين صحيح؟ الموت هناك أم الحياة هنا؟

كان يسائل نفسه، وفوجئ بأنّ خلّاق ردّ من دون أن يخرج السؤال من فمه. كان مدرّبًا على قراءة الأذهان كما يبدو، وذلك شبع أمني كبير، أهّله ليعيّن مالكًا صوريًّا لكافتيريا الأمن الوطني، حيث كلّ الذين يدخلون إمّا أوغاد أو بسطاء قد يتحولون إلى أوغاد، أو مجرّد زبائن عاديين سيتحدّثون عن النظام في أحاديث عابرة، بعضها مهمّ جدًّا وبعضها من التفاهات.

– الصحيح أنّك واهم، الصديق القعقاع معنا منذ الصباح، نناقش مسائل تجارية.

أراد أن يسأل عن تلك التجارة التي تناقَش والوطن كلّه مشتعل، والنظام قابل للسقوط في أيّ لحظة، لكنّ حذرًا مفاجئًا شدّه إليه، فلم يفكّر حتى في تلك النقطة. هدأ، جلس على طرف كرسيّ مهتزّ قليلًا، وتمنّى أن تكون كلّ الأحداث التي مرّت به منذ أن تعشّى هنا، وإلى الآن، مجرّد هواجس ضالّة، مثل الموت المتخيّل للثري أمام بوّابة المطار، ستعدّل نفسها قريبًا...

كانت نادية ترزي قد نحفت كثيرًا، وكان واضحًا أنّها شريكة لعجبنا في منكرات ما، ولن يكون مستبعدًا أنّ هذا الرجل العجوز هو الحاكم الفعلي للدولة، ودول أخرى كثيرة، لن يفكّر فيها خج،

لأنّها قد تشلّ تفكيره. كان واجمًا والآخرون واجمين وخلّاق سأله مرّتين عن رأيه في الأحداث الجارية بوصفه مواطنًا، فلم يردّ، وحقيقة، لم يسمع السؤال.

بعد حوالى ساعتين، كان يقف أمام بوّابة المطار، في البقعة نفسها التي مات فيها عجبنا بحسب التخيّلات، كانت نظيفة وعادية ومطروقة من الناس، ولم ير في وجه أيّ عابر أنّه التقى منذ وقت قليل بجثّة أنيقة، أيضًا لم يبد على تماضر وجع، بائعة الشاي المرابطة هناك، أنّ عينيها عانقتا جثّة، كانت هادئة ومغوية، ولا يهمّها في كلّ تلك الأحداث سوى ممارسة عملها، والضحك بحذر أمام مغازليها الكثيرين. وحين حاول أن يدخل صالة الوصول، عبر البوّابة التي كان يحرسها سنوات طويلة، اعترضه (و. د.)، وقال ببرود:

– غير مسموح يا سيّدي.

– أنا خضر.

– غير مسموح يا سيّد خضر.

– خضر جابر، الحارس قبلك، الذي علّمك حراسة البوّابة.

– غير مسموح يا خضر جابر الذي علّمني حراسة البوّابة.

– هل جننت؟

– غير مسموح يا خضر الذي يسألني هل جننت؟

17

كانوا اختاروا منزل الشهيد الظافر للإعلان عن الوفاة المرتقبة للنظام الذي سمّوه بائدًا، أوّلًا لأنّ بيت الظافر قريب من كلّ ما يمكن أن يشكّل بؤرًا لاستقطاب الغاضبين، مثل السوق الكبيرة وسلعها الاستفزازية، والبنوك الهزيلة، وخوائها من النقد، والشوارع الكبرى المدجّجة بالعساكر والآليات، والحفر المحفورة للصيد العكر، وثانيًا لأنّ الظافر مات بطلقة موجّهة إلى عينيه عن قصد، وكان ينظر إلى السماء كما قالت عائلته.

منذ الصباح، تجمّعت الأناشيد الثورية، تجمّع الغضب، والمغص، والهتاف، ولم يبق أيّ فرد يستطيع القدوم إلى ذلك الحي الذي كان هادئًا واحتلّته الضجّة، إلّا جاء.

أنشأوا منصّة من الخشب القوي أمام باب البيت، في فسحة خالية تستخدم للأفراح والأتراح معًا، صعد عليها العشرات معربين عن أسفهم وأملهم في الوقت نفسه، الأسف من موت شابّ مهندس، ومتفتّح، ولديه خبرات كانت ستفيد البلاد حتمًا، خاصّة في مجال الطاقة، والأمل من أنّ موته سيساهم في التغيير المطلوب للمستقبل. صعد زملاء كثيرون للشهيد إلى المنصّة، تحدّثوا بكلّ ما يعرفونه وأوشكوا تحت خنق العبرات، وفورة الدم في عروقهم، أن يتحدّثوا بما لا يعرفونه. مدير القطاع الحكومي الذي كان يعمل فيه الشهيد لم يأتِ، لأنّه كان من الرموز التي يناضل الناس للخلاص منها... وكانوا أخبروه باستشهاد الرجل فقال وملامحه غبية وحانقة: من صنّفه شهيدًا؟ وانشغل باتّصال تليفوني غير ضروري جاءه من سائق شاحنة يملكها وتعمل لمصلحة إدارته. الآن، جميع مرؤوسيه ينتظرون نهاية حفل الغضب، لتعريفه معنى الشهادة.

صعدت أم الشهيد أيضًا، وكانت امرأة في خمسينيات العمر، منضبطة، وواعية برغم الحزن، وكانت ترأس قسم المناهج في وزارة التعليم، قبل أن يطاولها سيف التشريد. كثيرون يعرفونها وكثيرون بكوا لبكائها الذي لم يكن مستمرًّا، وإنّما شهقات بين جملة وأخرى، وأكثر الأشياء التي آلمت الناس أنّها لوّحت بصورة للظافر، يجرّب فيها بدلة زفافه السوداء، التي كان سيرتديها رسميًّا الشهر القادم...

تحدّثت إحدى الجارات، بوصفها جارة في السرّاء والضرّاء، وتأسّفت لأنّها الآن داخل ضرّاء محكمة، تحدّثت جارة أخرى بوصفها أمًّا ثانية للفقيد، بجانب أمومتها لأكثر من خمسة عشر مليونًا، هم الأطفال والشباب الموجودون في الوطن بحسب إحصائية المجلس القومي للسكّان التي صدرت العام الماضي، وهذه لامها كثيرون، وهتف كثيرون ضدّها، وحاولوا إنزالها أيضًا، ذلك أنّ المجلس القومي للسكّان هذا كان مؤسّسة فوضوية من مؤسّسات النظام البائد، أدخل عبرها سكّانًا كثيرين لا يمتّون إلى الوطن بصلة، إلى منظومة سكّان الوطن. وكان من المصادفات الحزينة فعلًا، أنّ أجنبيًّا من دولة دمّرتها الحروب، كان موجودًا، وتحدّث بنزاهة شديدة. قال أنّه اشترى جنسية هذا الوطن، بأحطّ مبلغ يمكن أن يشتري به أحد جنسية، وإيمانًا منه بأنّ السلعة أقيَم من أن تباع بثمن بخس. سينضمّ إلى الثورة، قال وأخذ يهتف رافعًا يديه الاثنتين: تسقط دولة الظلم... تسقط دولة الفساد.

والد الظافر لم يكن موجودًا، كان شهيدًا آخر سقط في تظاهرات أخرى، حدثت قبل ستّة أعوام، لاجتثاث النظام نفسه، فقط نوّه أقاربه بوجود روح يعرفونها جيّدًا، هي بالقطع روحه، ترفرف الآن، وتبكي فلذة الكبد.

كان خج موجودًا في ذلك التجمّع القوي الذي أجمع الكثيرون على أنّه آخر رصاصة ستنطلق إلى جسد النظام وترديه. اللعّاق أيضًا موجود، وغربة جاء ثلاث مرّات وذهب. كان يصارع رغبته في إتمام المهمّة، ورغبته الأخرى في لقاء فتاة جامعية تحتاج إلى سندوتش ورصيد للهاتف وتنتظره عند بائعة الشاي عائشة شيراز أشيفو لإنقاذها من الجوع، وانقطاع التواصل. المشكلة فقط أنّها كانت دومًا جائعة، وتتواصل بصورة مكثّفة، فاضطرّته إلى شراء السندوتشات وشحن هاتفها بالرصيد ثلاث مرّات في ذلك اليوم.

وجود غربة واللعّاق لم يكن أمرًا مزعجًا لخج، وثمّة تواصل لا تواصلي اعتاده مع هذين الكبشين الضحلين، ومعروف أنّه كان يتشاحن معهما في الماضي ولا يزال، يشتمهما ويشتمانه، وقد تعوّد سبّ قبيلتيهما بالسهولة نفسها التي تعودا فيها سبّ قبيلته. غربة كانت لديه قبيلة فعلًا، وتسكن في مكان ما غرب البلاد، بعكس اللعّاق الذي غالبًا تخرّج في زقاق قديم كانت فيه دعارة سرّية، وكان سمع مرّة من مجنّدين لا يحبّونه، أنّ أمه هي جلاليا الحبشية، التي قطع زبون متوحّش ومنتش شرايين يديها منذ زمن طويل، لكنّ ذلك لم يكن مؤكّدًا...

لم يكن خج يعرف الشهيد الظافر، ولا سمع به إلّا حين جاءت الإشارة بمتابعة منصّة كبيرة نصبت لرثاء أحد ما، وقد يتبع ذلك خلل في الشرعية الدستورية. أسرع ليس بسبب الأمر، وقد تعوّد تجاهل الأوامر كثيرًا، وإنّما بسبب يقينه أنّ الحبيبة الثائرة ستكون هناك. وقف يتطلّع إلى الغضب، ويستمع إلى الكلمات، شاردًا أحيانًا، وممعنًا في التركيز أحيانًا أخرى، يحرّك عينيه في اتّجاهات شتّى، ويحكّ أنفه مرّات عدّة، من دون حتى أن يستعر الأنف. ماذا لو لم تجئ هبة كسّار؟

ماذا لو اعتبرت أنّ في تجمّع الناس أمام بيت مات فرد من أفراده شجنًا كثيرًا جدًّا، لن تقدر عليه؟ ماذا لو كانت هي نفسها مريضة أو ماتت؟ لا... حكّ أنفه وجبهته، ودعك عينيه بإصبع ما كان من المفترض أن يدعك بها العينين، ولا يعرف متى غسلها آخر مرّة.

فجأة، أعلن الشابّ الذي يحمل المايكرفون، وينسّق احتفالية الرثاء، أنّ الكنداكة الثائرة هبة كسّار ستلقي كلمة تمثّلها وتمثّل الأحرار كلّهم. ابتسم خج، ابتسم لأنّ كنداكته لا تزال موجودة، وتشارك في رثاء شهيد. تزحزح، تزحزح أكثر، حتى التصق بالمنصّة، وكانت صعدت، ترتدي الثوب الأبيض الذي كان الآن سمة من سماتها، وسمات كلّ الثائرات. حيّت الناس كلّهم، الذين ماتوا اليوم وأمس، ومنذ علي عبد اللطيف، وألماظ، ولوممبا، وتشي غيفارا، والذين ما زالوا يناضلون ليموتوا أو يصنعوا وطنًا جديدًا، حيّت الأفكار الجيّدة، والمساعي الحثيثة لبناء الحياة، بعد السقوط النهائي، وقالت: الظافر أخونا وفقدناه، وفرح ابن حي بركة، ابننا وفقدناه، سعاد وفاطمة قطعتا نياط قلوبنا، والذين يقفون الآن متوهّجون وصلدون، سيظلّون هكذا، طالما في قلوبهم نبض. قالت: الرصاص يقتلنا، لكنّ أرواحنا تواصل، والسجون مرحّبٌ بها، إن كان تكدّسنا فيها سيكنس هذه القذارة.

كانت تلتفت يمينًا ويسارًا، باحثةً عن الوجوه التي تظنّها وجوهًا طيّبة أو ثائرة، أو حتى وجوهًا بذيئة لأشخاص بذيئين انحشروا في ذلك الغضب للإساءة إليه. في وسط ذلك الزخم، عثرت على خج قريبًا جدًّا، لدرجة أنّها تقدّمت إلى طرف المنصّة، انحنت وأمسكت بيده، هزّتها ثمّ أفلتتها، وعادت إلى الوسط، هتفت: «انتصرنا يا حارس البوّابة...» ردّد الناس كلّهم، بمن فيهم أم الشهيد وأخواته، وأهل الحي الذي ولد ونشأ فيه: «انتصرنا يا حارس البوّابة. انتصرنا».

غربة كان موجودًا، في تلك اللحظة. دوّن شيئًا في هاتفه، لا يعرف إن كان منكرًا من منكرات مهنته، أم رسالة عادية لشخص عادي. اللعّاق تجهّم، تجهّم جدًّا، ونبح في خفوت، ذلك النبّاح الذي يمكن تفسيره بأنّه غيرة غبية، فهو يعرف تمامًا أنّ هذه الفتاة بالذات ستكون مشنقة لشهوته إن حام حولها. فتح هاتفه ودوّن شيئًا أيضًا، ولا يعرف كذلك إن كان منكرًا أم لا.

نزلت الكنداكة من أعلى المنصّة، حيّاها الكثيرون على الجرأة والثقافة، خاصّة حين ذكرت روحًا اسمها روح ماجندرا، أسقطت نظامًا بوذيًّا متجذّرًا في الهند في القرون الماضية، وروح الثائرة عديلة، التي كانت بمثابة شرارة أسقطت مملكة ظالمة في تاريخنا المعاصر، وأضافت: «لماذا لا تسقط روح الظافر، نظامًا مماثلًا الآن؟».

«ستسقطه... ستسقطه»، هتف الجميع.

أمسكت بيد خج وقادته إلى بقعة أقلّ زحامًا، كانت تريد أن تشكره على باقة ورد حمراء وصلتها صباح اليوم قبل أن تتحرّك من بيتها، وقيل لها من خضر جابر، حارس بوّابة المطار،

تقديرًا لثوريّتك. في الحقيقة، خضر جابر لم يرسل إليها أيّ شيء، ولا يعرف أصلًا أنّ هناك تجارة في البلاد تعنى بتنسيق الزهور وإرسالها إلى الأحباب. والوردة الحمراء التي سلّمها له محمد لكزس مع المسدّس، حين كلّف إسكاتها، الآن ذبلت في جيبه. كانت لا تزال ممسكة بيده، وقد فتحت فمها لتتحدّث، بينما خج منتشٍ، وقد خطرت في باله أغنية اسمها: المنديل، تتحدّث عن منديل معطّر نقش فيه حرفان، تمنّى أن يكونا: خ. هـ. في تلك اللحظة، دوّى صوت كريه فجأة:

«كنداكة هبة، أنت تقفين مع رجل أمن خطر، جنّد لقتلك، احذري، احذري»، ثمّ لمست يد مدرّبة على لمس ما لا يلمس، جيب خج، انحشرت في الجيب، أخرجت مسدّسًا صغير الحجم، لوّحت به في وجه الكنداكة، وأعادته إلى مكانه. كان ذلك شيخ الأحباب، الأحدب، القصير، التافه، وكان يضحك وقد تشعّبت رائحة أنفاسه الصديدية، وملأت المكان.

الكنداكة بدت غير مصدّقة في البداية، ثمّ صدّقت بعد أقلّ من ثانية، بدت مصدومة، ثمّ تلاشت الصدمة، في وقت حدوثها تقريبًا. أوّل ردّ فعل لها كان أنّها رفعت يدها، وصفعت خدّ خج الأيمن، ثمّ رفعت الأخرى، صفعت الأيسر، ثمّ بصقت على وجهه، وهو مشلول، لا يستطيع الردّ، ولا يستطيع عدم الردّ، ولا مجرّد التفكير في الردّ أو عدمه. والتمّ الناس، تنازلوا عن رثاء الشهيد، وتحلّقوا حولهما، كانوا يظنّونه تحرّشًا جنسيًّا بكنداكة، لكنّ المشكلة كانت أعمق.

وجد خج نفسه محاطًا بالعداوة، وآلاف يستعدّون لسحقه، أخذ يركض كما لو أنّ قدميه صيغتا للركض وليس للمشي. كانوا يصرخون: «كلب الأمن... كلب الأمن»، وبعضهم امتلك طاقة أن يركض خلفه، توغّل في شوارع جانبية، فيها حفر عميقة وأسلاك كهرباء عارية مكتوب عليها «خطر». توغّل وسط بيوت بعضها كبير وواسع مع حدائق، وبعضها مجرّد غرف متراصّة بلا أيّ هندسة معمارية، راوغ حجارة وتروسًا مغروسة في الشوارع، وإطارات محروقة، وشاهدته امرأة عجوز، كانت تقف أمام بيتها تتقصّى الشارع. ظنّته واحدًا من الثوّار، تطارده أقدام الشرّ، فسحبته إلى الداخل بسرعة، وأغلقت الباب. كان محطّمًا، ويائسًا، ويكاد يعرف أنّه استخدم من دون أن يدري في مهمّة من تلك التي يستخدم فيها أفراد غشيمون، فترة محدّدة، ثمّ تمحى آثارهم. لم يكن في استطاعته نفي التهمة أمام الكنداكة، والتهمة عالقة به، تمامًا كرائحة الجلد، كان ثمّة مسدّس، وبطاقة أمنية في الجيب، ولو أمسكوا به وفتّشوه، لعثروا على الظاهر في شخصيته، ولن يعثروا على الباطن، لأنّ لا أحد يستطيع استخراج الباطن.

جلس في بيت العجوز، التي كان اسمها قرشية، وتعيش وحدها، من معاش زوج ميت. ساعات، هدأ فيها من صدمة اغتياله نظريًّا بواسطة الجهاز الذي جنّد فيه قسرًا، وابتدأ يفكّر في الحياة الأخرى، التي تتبع الموت حين يموت فعليًّا. مؤكّد عرف الثوّار كلّهم أنّه أمني، ومؤكّد وصلت الأخبار الكئيبة إلى الذكية ومسرّة، وكلّ سكّان حي بركة، ومؤكّد هناك سكاكين اجتماعية

كثيرة الآن تسنّ لذبحه، وإن نجا منها، لن ينجو من شيخ الأحباب، القاتل السافل. ابتدأ يفكّر في طريقة ليقتل بها شيخ الأحباب، وكانت كلّ وسيلة طرقها تبدو مجرّد فكرة غبية، فقاتل مثل شيخ الأحباب لن يموت إلّا حين يقرّر رؤساؤه ذلك. لم يحاول أن يفكّر في ضياع الحبيبة، لأنّه لا يريد البكاء أمام العجوز، يريد أن يتفرّغ لذلك البكاء في وقت آخر مميّز، ربّما يكون قبل موته بقليل.

آخر الليل، طرأت على ذهنه المتوعّك فكرة، سيذهب إلى القسم النموذجي للتوبة، ويحاول أن يلتقي باللواء (ب. ب.) ضرغام، يسترحمه، يبكي أمامه، ربّما يرحمه، يطرده من الخدمة، أو يعيده إلى بوّابة المطار، وربّما يأمر بذبحه، ولا يوجد ما يخسره.

أخرج هاتفه من جيبه، رنّ للعّاق فلم يردّ، رنّ لغربة، فلم يردّ. أراد أن يرنّ للذكية وخاف، أن يرنّ لهبة نفسها، وكان عرف هاتفها صباح اليوم فقط، ولم يشأ استخدامه، لكنّه خاف جدًّا... جدًّا.

18

قرشية العجوز كانت أمًّا حقيقية. لم تسمح لخج بالخروج من بيتها إلّا بعد أن تأكّدت من أنّه شبعان ومُرتَوٍ، وشعره مسرّح، ولحيته حليقة، ومستقرّ نفسيًّا إلى حدّ ما. تجاوز كوابيس اليوم الأوّل، ونام في اليوم الثاني ساعات ليست كافية جدًّا، لكنّها ساعات في أيّ حال. وكانت خرجت مرّة بعد أن تأكّدت من مقاساته، وأحضرت له سروالًا وقميصًا جديدين، وغطاء عريضًا للرأس من السعف، وشالًا رماديًّا يمكن لفّه على الوجه، كي يخفي الملامح. أوصلته إلى الباب، وحذّرته من التعرّض للميليشيات، ورجال الأمن الوطني، الذين ابتلعوا الشرطة وأخذوا مكانها حتى في المخالفات التي لا علاقة لها بحماية النظام، مثل مخالفات المرور، والعنف الزوجي في البيوت، واشتباك جارين في أولويّة حفر حفرة للصرف الصحّي... كانت كنداكة عجوزًا، لكنّها فاعلة جدًّا، هكذا فكّر خج، وهو يبتعد عن العطف وفي لسانه شكر متّصل. كان الآن خارج النباح بكلّ تأكيد، وأكثر ما آلمه بالطبع أنّ حبيبته الثائرة، ضاعت إلى الأبد، وحتى لو عاد إلى حي بركة، وإلى وظيفته القديمة حارس بوّابة عاديًّا، بعد سقوط النظام، وأثبت للجميع أنّه لم يكن أمنيًّا مدجّجًا بالكره، ولا آذى أحدًا، لن يصدّقه الناس، تمامًا مثلما لم يصدّقوا الناجم، ساكن حي بركة الذي دعاهم إلى بيته، وأخبرهم بأنّه لم يكن مقتنعًا بوظيفته. لكنّ ثمّة فرقًا، فهو لم يمضِ سوى أشهر، لم يمارس خلالها أيّ ضرر، والناجم أمضى أربعين عامًا، متنقّلًا من نظام إلى آخر، يتطوّر مع تطوّرات الأذى الذي تبتكره الأنظمة، وتوسّخ به الأخلاق.

مشى بقدميه فترة. كانت الشوارع مليئة بالتروس التي تعيق تحرّكات القمع، هناك إطارات محروقة لا تزال نيرانها متوهّجة، وأخرى تتنفّس بالدخان بعد أن خبت نارها، الآليات العسكرية في كلّ مكان، والميليشيات الفوضوية منتشرة أيضًا، يتحقّق أفرادها من رخص القيادة لدى السائقين، يسألون عن أوراق الزواج والطلاق، وبطاقات التموين، ويستخدمون بعض الشباب في إزالة التروس بوضع رؤوس الأسلحة على ظهورهم. وقد عثر قريبًا من أحد التروس على جندي مخبول، أو منتشٍ بكارثة ما، يضع هاتفه الذي يبثّ موسيقى راقصة على حجر مسطّح، ويمسك

بفتاة مذعورة، يراقصها على أنغام الأغنية، والفتاة تصرخ، ولا أحد يساندها. كان خج يتوارى سريعًا، يحاول ألّا يقع عليه نظر أحد، خاصّة رجال الميليشيات الفوضوية، حتى لا يضطرّ إلى إخراج بطاقته السامّة من جيبه.

بعد ساعة تقريبًا، توقّفت أمامه فجأة سيّارة لاند كروزر مرقّعة ومكشوفة، ومكروهة، أطلّ من داخلها وجه رجل يعرفه، إنّه الأمني العجوز الذي يجلس أمام شاشات المراقبة في القسم النموذجي للتوبة، ويستخدم في أغراض تخصّ كبار السنّ، صاح: «مرحبًا يا خج، طاقيّتك غريبة الشكل، هل أنت سائح؟».

ضحك، ومنظر حارس البوّابة السابق لا يدعو للضحك، بقدر دعوته للبكاء، كان لا يزال مذعورًا، ومغتاظًا، وعواطفه مشلولة تمامًا، لا تستطيع أن تتحرّك في أيّ اتّجاه.

«تعال...»، قال المسنّ.

«كانوا يبحثون عنك»، أضاف.

ركب خج بجانب الرجل من دون أن يسأله شيئًا، كان يعرف أنّهم يبحثون عنه، وهو أيضًا يبحث عنهم، كان اسم الرجل الأصلي نوح، واسمه الحركي: نوحو، واسم أحد أبنائه: نوحان، وإحدى بناته: نوحية، وغيّر اسم امرأته من أفراح، إلى نويحة. وكلّ ذلك حدث بعد أن أخفقت محاولة اغتيال رئيس الدولة المجاورة، التي كان مشاركًا فيها. لم يكن نوح من ذلك النوع الذي قد يتحدّث إلى شجرة، أو زقاق مظلم، أو حائط صلد لإفراغ ما في حلقه من كلام، وإنّما من ذاك الذي يثرثر عند الضرورة فقط، أي عندما يعثر على أذن حيّة يمكن أن تستمع، ولسان حيّ يبادله الكلام.

– تعرف يا خج، كنت ألعب بالأسلحة لعبًا في تلك الأيّام، كان الكلاش عندي مثل الكمّاشة، أستخدمه أحيانًا في خلع ضرسي، أو تقليم أظفاري، وأحكّ به ظهري إن جاءتني حكّة في الظهر. أنا لم أخفق في مهمّتي، كنت دقيقًا جدًّا، نفّذت تعليمات شيخي بدقّة، نصبت الكمين مع زملائي، وصوّبت نحو المشبوه بجدارة، لكنّ سيّارة المشبوه، كانت مصفّحة. سوء حظّ، أليس سوء حظّ يا خج؟

لم يترك فراغًا بين سؤاله واحتمال أن يجيب خج، واستخدم كلمة شيخي بدلًا من رئيسي، لكنّ خج لم يرد أن ينتبه لتلك النقطة.

استمرّ:

– الجميع يقولون نوح لم ينجح... نوحو لم ينجح، ويعرفون أنّ نوح نجح، لو أردت اسأل دوائر المخابرات في العالم كلّه، اسأل السي آي إيه، يقولوا لك نوحو أفضل قنّاص، أفضل حتى من القنّاص الأميركي في العراق شكر الله.

فقرة الـ«سي آي إيه»، لم تكن واقعية بكلّ تأكيد، هذا ما فكّر فيه خج، فلا يوجد بحسب علمه أميركي اسمه شكر الله.

– تعرف، استمرّ، يقول مخترع الأسماء الحركية في العالم، الأميركي جوزيف، لا أذكر اسم أبيه، إنّ نوحو هو أفضل اسم حركي لرجل أمن.

هنا التقط خج فراغًا صغيرًا في الثرثرة، حين توقّف نوح فجأة ومدّ رأسه من النافذة، ليشتم دجاجة شقية كانت تقفز أمام سيّارته. كانت المرّة الأولى التي يسمع فيها بأنّ للأسماء الحركية مخترعًا، وأنّه سمع بنوحو، وقام بتقييمه. بدا له الأمر، بقدر إزعاجه، نوعًا من التسلية النادرة التي كان سيستمتع بها لولا وضعه الحالي. كان من الواضح أنّ نوح لم يسمع باغتياله معنويًّا، وربّما هو أصلًا موجود هناك ليكون هكذا، لا يسمع شيئًا مهمًّا. ترى، هل اغتيال مجنّد بسيط بعد استغلاله أمرًا مهمًّا ليسمع به المجنّدون الآخرون؟ ربّما... ربّما... سيرى حين يصل إلى مقرّ الأذى هناك.

قال:

– فعلًا؟

– طبعًا... فعلًا وفعلان، ابحث في الإنترنت، اكتب «نوحو» وستجد علامات تجارية كثيرة تحمل هذا الاسم، منها علامة تي شيرت، من صنع شركة إيطالية... واسم لوح للتزلّج مصنوع في إسرائيل، وسمعت أنّ عازفة البيانو التشيكية حوّاء، غيّرت اسمها إلى نويحة، على اسم زوجتي. آخ من أيّام العزّ.

تنهّد نوحو بمشقّة، سعل، كان سعاله عاديًّا، حادًّا قليلًا، لكنّه لا يشبه سعال المدخّنين بالرغم من أنّه يدخّن منذ خمسين عامًا، كان قد دهس الدجاجة القافزة أمام العربة مع الأسف، سمعها خج تقرقر، قرقرة خلاص الروح، ودخل حجر صغير من النافذة المفتوحة، أصاب علبة مناديل ورقية من ماركة «أمنا العازة» الرديئة المصنّعة محليًّا، موضوعة أمام المقود. التفت السائق وخج ليشاهدا طفلًا عاريًا، في حوالى الخامسة، يهتف «ثورة... ثورة»، رافعًا يديه الاثنتين، وكان من المؤكّد أنّ أمه أو أخته أو أباه، أو أيّ بالغ آخر في العائلة، هو الذي رمى الحجر.

وصلا إلى القسم النموذجي، كانت الساعة حوالى الثالثة عصرًا، صوت أذان يحلّق من بعيد، صوت هتافات، رصاص، سقوط، وثمّة فوضى في المكان عرفا من عمقها، وامتدادها إلى السيّارات والأسلحة، والأفراد، والصياح، وأنت... ويا، رقيب... عريف. ابن الزانية... إلخ... أنّ الرئيس الذي سمّي مخلوعًا من الثوريين السلميين، وتُجرى مراسم خلعه رسميًّا في كلّ شبر من أشبار الوطن، سيخاطب الجماهير اليوم، وعلى كلّ الأجهزة الأمنية أن تستعدّ.

– تستعدّ لماذا؟

كان خج محظوظًا لأنّه يخاطب نفسه، ولو كان يخاطب نوحو، لمات على الفور. هؤلاء الأمنيون المسنّون هم ألعن أنواع الأمنيين، ذلك أنّ لهم عادات وتقاليد يحتفظون بها، خلافًا للأمنيين الشباب الذين قد يتخلّون عن شيء مقابل شيء، ومؤكّد من تقاليد واحد مثل نوح، أنّه يعبد رئيسه حيًّا أو ميتًا، كان يقول: نفديه بدمنا، نحن جنوده. سأل خج:

– أليس كذلك يا زميل؟

– نعم، بكلّ تأكيد، ردّ خج وقد بدأت معدته تؤلمه.

كان قريبًا من الموت فعلًا، وممكن جدًّا أن يكون (ب. ب.) ضرغام في فورة تجهيزه لحماية الرئيس، غبيًّا في تقديره للأمور، ويتولّى تصفيته بنفسه، خاصّة أنّه يبحث عنه كما فهم من نوحو. لقد استخدم ضرغام شيخ الأحباب لاغتياله معنويًّا أمام حبيبته، وكلّ الثوار الآخرين، وممكن أيضًا أن يستخدمه لاغتياله النهائي الآن. كان يتلفّت في ذعر، لكنّ شيخ الأحباب لم يكن موجودًا. مؤكّد هو في الساحة الكبيرة التي ستحتشد بغوغاء يجلبون من هنا وهناك، يخاطبهم المخلوع، مؤكّد هو الصقر الرئيسي في برنامج الحماية اليوم، لكنّ خج كان مخطئًا في رسمه لتحرّكات شيخ الأحباب، مخطئًا جدًّا.

كان صاحب اليد المكسورة موجودًا في تلك المعمعة، وبدا عاطفيًّا فجأة حين طلب من خج أن يجلس على مقعد خفيف موضوع أمام طاولة الاستقبال، وملأ له كوبًا من الماء من ثلّاجة مياه أمامه، سأله فجأة:

– هل تنوي الزواج؟

خج لا يعرفه جيّدًا، والتقاه مرّتين أو ثلاثًا، أبرزها تلك التي أجلسه فيها على مقعد الشوك عشرين ساعة انتظارًا للقاء (ب. ب.) ضرغام، ولم يحدث اللقاء. كان غير معجب بوجهه أسوة بعدم إعجابه بوجوه كلّ الزملاء الآخرين بمن فيهم اللواء (ب. ب.)، الذي شاهده مرّات كثيرة، هنا وفي أماكن أخرى، منها مرّة كان فيها برفقة زوجته وأطفاله الصغار، يتسوّقون من سوبرماركت كبير، افتتح منذ أسابيع رغم كلّ ما يحدث في البلاد، ودخله خج بدافع الفضول فقط من دون أن تكون لديه نيّة للشراء. يومذاك، ارتبك جدًّا، فرّ من أمامه في اللحظة التي شاهده فيها، وكان أحد أبنائه يحمل مسدّسًا من البلاستيك، صوّبه نحو كلّ زبائن السوبر ماركت تقريبًا، بمن فيهم خج نفسه.

قال وهو يحسّ صوته ميتًا، صوت جثّة:

– نعم، لكن ليس في الوقت الحالي.

– وما له الوقت الحالي؟

– عصيب قليلًا.

– عصيب في ماذا؟

– أعني الوطن يحتاج إلينا لنصرته ومحاربة أعدائه، أكثر من أن نفرح لأنفسنا.

كانت إجابة مثالية لأسئلة استفزازية من واحد يده مكسورة لأنّه كان في عربة مشبوهة يصوّب بالرصاص والغاز المسيّل للدموع وقلبها الثوار على ظهرها، فنهض بصعوبة ليفرّ. ولولا هذه الإجابة التي جاءت عفوًا، من واحد منهار مثل خج، لحدثت تطوّرات كثيرة، بالتأكيد ليست نحو الأفضل.

– هل سمعت بآخر التحرّكات؟

– أيّ تحرّكات سيدي؟ هناك تحرّكات كثيرة.

– الخاصّة بتوجّه الخونة نحو قيادة الجيش، ليعتصموا هناك، ويطالبوا الجيش بأن ينقلب على الشرعية.

– نعم، أعرف طبعًا.

كذب خج، وصاحب اليد المكسورة أيضًا لا يدري أنّه اغتيل، يعامله كفرد ما زال حيًّا، وفاعلًا، أو ربّما يدري، وفقط ينفّذ تعليمات غامضة.

– ما رأيك؟

– أعتقد الأفضل أن نتركهم للجيش ليتسلّى بهم. لن نمنعهم من الاعتصام. الجيش جيشنا، قال خج وكانت أيضًا إجابة متمكّنة، ولو قال غيرها لربّما واجه التطورّات التي ليست نحو الأفضل.

الآن هو لا يفكّر في نفسه كثيرًا، بل في هبة، الثائرة التي أحبّها، ولا يعرف كيف يفديها، كان من المؤكّد أنّها تحتاج إلى مَن يفديها، والآن فورًا، وقد تصاعدت الأحداث بصورة مؤسفة، ومسألة كشفه أمامها، عرّاها من حمايته. كان ينوي أن يصارحها بكلّ شيء، يأخذها ويفرا بعيدًا. عبر الصحراء، عبر البحر، عبر بساط ريح من الأحلام، لا يهمّ. ترى هل سيراها مرّة أخرى؟ هل؟ هل؟ هل؟ بكى، ومسح دموعًا كثيرة بيده. انتبه صاحب اليد المكسورة لبكائه، فسأله بخشونة:

– ماذا؟

ردّ ردًّا بدا أليفًا أيضًا وسلسًا يمكن أن يهتمّ به واحد غبي مثل صاحب اليد المكسورة:

– تذكّرت أبي فجأة، كان مخلصًا لوطنه، ولو كان حيًّا، لكان أوّل من يحارب الخونة.

19

انتهى التشنّج والصياح، وانتهت دربكة كتيبة الحماية التي كانت متّجهة لفرد العضلات في زمن لم تعد تجدي فيه أيّ عضلات.

انتهى الهرج، ووجد خج نفسه وحيدًا مع نوحو، وصاحب اليد المكسورة الذي قال فجأة: «سيقابلك سيادة اللواء ضرغام، ولكن لديه حكامة الآن كانت تنتظر أن تنتهي مشاغله. لن تتأخّر، بضع دقائق تلقي فيها قصيدتيها وتمضي».

كانت المرّة الأولى التي يسمع فيها خج بالحكامات، ذلك أنّه لم يكمل تعلّمه، وغير مثقّف، وأضاع حتى الفرص النادرة التي منحته إيّاها هبة كسّار أيّام مرض والدها، حين كانت تصحبه لحضور المعارض، والأفلام التسجيلية، ولا يركّز على شيء. بالتأكيد، كان من بين تلك الأفلام واحد عن حرب تحرير شبر ما من العالم العريض، واحد عن تراث الشعوب في الشرق والغرب والجنوب، وواحد عن المرأة الحكامة التي تمجّد من يستحقّ المجد في رأيها، بأغنيات في أغلبها سخيفة، وبلا أيّ سند تتّكئ عليه، وتنال ما يتيسّر من العطاء وتمضي، مثل أن تسمّي تاجرًا بخيلًا: أبانا صاحب العطاء، وسلطويًّا متهتّكًا وفاسدًا: رجل البرّ والتقوى. تلك التي عند ضرغام الآن صيّرته أسدًا، لدرجة أوشك فيها أن يزأر. عادت وصيّرته غزالًا من شدّة رشاقته، وكاد يركض مصدّقًا كلامها، وصيّرته في النهاية إمام المتّقين، وأثنت على لحيته المبخّرة بالصندل، وثيابه التي تنزّ بالتقوى.

انتهت الحكامة من خرافاتها كما يبدو، نظر صاحب اليد المكسورة إلى شاشة هاتفه، ونهض قائلًا: «تعال».

لم يكن اللواء في مكتبه الذي يعرفه خج، ولا في صالة كبار المذنبين التي غالبًا ما يمارس فيها رياضة النوم على ظهور المتحفّظ عليهم أحياء وأمواتًا، كان في غرفة جانبية أعدّت للأفراح والعزاءات، بمعنى أنّه يعلن فيها الأخبار الطيّبة وغير الطيّبة للمجنّدين، والآن لا يدري خج الذي كان يرتعش، هل أخباره طيّبة أم لا؟ هل سيعتذر له اللواء عمّا حدث من شيخ الأحباب؟ أم يأمر

بتصفيته علنًا وأمامه، بلا أيّ مداراة. كان يرتعش، يرتعش جدًّا، ولا يستطيع السيطرة على لسانه الذي بات أبيض من شدّة فرار الدم. كان (ب. ب.) يجلس على مقعد واسع، مغلّف بقماش أحمر، يرتدي ثوبًا وطنيًّا من الكتّان النظيف، ويعتمر عمامة من قماش متموّج، وخلفه تمامًا علقت تلك القصيدة الكئيبة التي قال غربة أنّه يعشقها.

– سيّدي اللواء، قال خج، وبرك على ركبتيه.

قبّل رزمة من الحشيش عند قدمي اللواء، ولا يدري مغزى وجودها، لعلّها هنا ليقبّلها ويبدو حيوانًا في الصور التي مؤكّد التقطها صاحب اليد المكسورة بهاتفه.

– سيّدي اللواء... أنا حارس بوّابة.

– أنت جنديّ ممتاز، أحد أعظم جنودي، انهض.

نهض، ونهض اللواء أيضًا، اقترب منه، تناول من على طاولة صغيرة موضوعة في المكان، قطعة معدنية مربوطة إلى شريط أزرق، كان نوطًا أو نيشانًا لكن لماذا؟

– هذا نوط الشجاعة أقلّدك إيّاه... لإنجازك مهمّة صعبة، قال، ووضع الشريط حول عنقه، ودوّى تصفيق شديد، التفت خج ليرى عددًا من المجنّدين هناك ويصفّقون، وصاحب اليد المكسورة يوثّق بالصور.

مهمّة؟

ما المهمّة التي أنجزها؟ بحسب علمه لم يفعل شيئًا قطّ، وحتى الفتنة القبلية التي اشتعلت مرّة في ذلك الحي الطرفي، وحضرها، كان فيها مجرّد متفرّج فقط، وزملاؤه هم من أشعلوها، والمرّة الوحيدة التي استخدم فيها صفته الأمنية، كانت يوم موت عجبنا، وهذا أيضًا اتّضح أنّه مجرّد خيال. لن يسأله عن المهمّة التي أنجزها، فهو لم ينجز مهمّته الأخيرة بعد، ولم يكن ينوي إنجازها. ربّما يكون مخطئًا والنيشان من حقّ شخص آخر، أنجز مهمّةً ما بالفعل، سيتجاوز هذه النقطة.

– سيّدي كنت أؤدّي واجبي، لكن هناك تعقيدات.

– تعقيدات؟ لا يا رجل، أكيد تقصد ما فعله شيخ الأحباب أمام الخونة، هذا من أولياء الله الصالحين يا رجل، كراماته لا تعدّ ولا تحصى، وقد جعلك تفرّ من المكان في اللحظة التي جنّ فيها أحد الخونة، وأخذ يطعن الناس بسكّينه.

– معقول؟

– معقول طبعًا.

– طعن كثيرين؟

– ليس كثيرين لحسن الحظّ، لقد سيطرنا عليه.

بدا فم خج أنّه جفّ حتى من الحروف. في ذهنه سؤال عن حبيبته، ويريد فعلًا أن يسأله ولا يجد حروفًا مناسبة يسأله بها، يقول أنّ شخصًا هاجم الناس قرب منصّة عزاء الشهيد الظافر، وأنّه نجا من الطعن، فهل نجت هبة أيضًا؟ أخيرًا، عثر على معنى قريب، تضفر في لسانه:

– الفتاة سيّدي.

– تقصد الدجاجة التي أطلقت عليها الرصاص، وخلّصت الوطن من شرّها؟ نعم، عثر على جثّتها في تلك البقعة التي رميتها فيها، وسلّمت لذويها، وشيخ الأحباب الآن في المقابر، يتابع الدفن.

لم يصدّق خج ما يسمعه، لم يصدق قطّ أنّ هبة كسّار ماتت، وهو من قتلها افتراضيًّا بينما في الغالب قتلها المسخ الأحدب شيخ الأحباب. لقد كان منزويًا عند العجوز قرشية يومين كاملين، خائفًا من مصير مجهول، وكان المصير للأسف ينتظر الكنداكة هبة كسّار أكثر منه، يا إلهي! حبيبته! وكان مستعدًّا لأن يفديها بروحه ويعرف أنّه لا يملك روحه، يا إلهي!

سقط على الأرض في كومة القشّ تمامًا، وانحنى أحد المجنّدين لا ليرفعه ولكن ليريه مراسم دفن الكنداكة الشهيدة هبة كسّار التي قتلها خليل جابر، أحد المندسّين في جهاز الأمن الوطني، بغرض تشويه سمعته، كما نشرت السلطة، والتي يبثّها أحدهم من المقابر مباشرة. مدّ أحدهم يده إلى جيبه، أخرج المسدّس الذي لم يستخدم قط، وما كان أصلًا مشحونًا بالرصاص، ووضعه أمام اللواء، ثمّ أخرج الوردة الذابلة، ووضعها هناك أيضًا. حمله اثنان من زملائه، هبطا به طابقين تحت الأرض، ووضعاه بجانب أرواح هشّة، من الواضح أنّها كانت من أرواح الوطن ذات يوم، لها آلام وأحلام. كان يسمع أنينًا مشوّشًا، يسمع الشجن، والتهتهة، والبكاء الخافت جدًّا كأنّه لا بكاء. لم يكن يبكي، لأنّ عاطفته مشلولة تمامًا، وغير قادرة على التأقلم مع كلّ تلك الرغبات: رغبة الحزن، رغبة الحزن ثانيًا، رغبة الحزن ثالثًا ورابعًا وخامسًا وعاشرًا.

20

صباح اليوم التالي، كانت الحشود العظيمة قد احتلّت المكان أمام قيادة الجيش، وأغلقت كلّ الشوارع المؤدّية إلى هناك بالتروس التي يحرسها الثوّار. كانوا يهتفون بلا توقّف، يغنّون للثورة بلا توقّف، يحملون صور الشهداء على صدورهم، وقد كانت صورة هبة مزيّنة بورود كثيرة، ذلك أنّ أمّها قالت: هي تحبّ الورد جدًّا. كانت أيضًا ثمّة صورة داكنة قاتمة الملامح، حملتها الذكية على صدرها وكتبت فيها بخطّ أشبه بخطوط الدموع إن قدّر لها أن تكتب: أخي لم يكن خائنًا، أخي لم يقتل أحدًا... أخي شهيد.

لكنّ أحدًا لم يكن يلتفت إليها، كانوا ينظرون إلى صورة خج بامتعاض، ويواصلون الهتاف.